ما تبقّى من حياة

سهى زكريا

ما تبقّى من حياة

سلسلة شهادات سورية -16- ما تبقّى من حياة
سهى زكريا

الإخراج الفني: فايز علام
صورة الغلاف: يزن عباس
تصميم الغلاف: فادي العساف

الطبعة الأولى ـ 2015

ISBN: 978-9953-583-69-3

تمت طباعة هذا الكتاب بمساعدة من جمعية
«مبادرة من أجل سورية جديدة» - باريس

جميع الحقوق محفوظة للناشر. لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأية طريقة سواء أكانت إلكترونية، أم ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل، أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية مسبقة من الناشر ومقدماً.

الناشر:
بيت المواطن للنشر والتوزيع
دمشق ـ الجمهورية العربية السورية
هاتف: 78840213 961+
بريد إلكتروني:
baitelmouwaten@gmail.com

التوزيع:
أطلس للنشر والترجمة والإنتاج الثقافي
شارع الحمرا ـ بناء رسامني
ص.ب: 6435 / 113 بيروت ـ لبنان
هاتف: 750054 1 961+
فاكس: 750053 1 961+
بريد إلكتروني:
atlasbooks@gmail.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن آراء الناشر.

حديث الطيور

تلك العينان الغارقتان في زرقة البحر تطالبانك بالتفجع، بالبكاء والرثاء لصاحبها، ذاك الشاب المبتسم المدجّج بكل أنواع الأسلحة رافعاً رشاشه نحو الأعلى في لحظة ثبات وقوة لا تلين، يقول لك: أنا الآن مجرد ذكرى ومجرد ظلٍّ باهت لكل هذا الحضور. في حديث الصورة تكثر التفاصيل في ذاك الازدحام الواضح لصور لامعة وملونة ومرفوعة على جهتي الطريق، وعلى بوابات الأبنية، الجميع مبتسم ومهندم، كلهم حضّروا أنفسهم للحظة الرحيل، فأخذوا صوراً مسبقة لأنفسهم يبدون فيها واثقين جداً من قوّتهم ومن نصرهم.

الذين لم يتصوّروا في بذاتهم العسكرية وجُعَبهم وعتادهم الكامل يشهر أهلهم صورهم في بذات أنيقة وجديدة تليق بمناسبة سعيدة وحميمة، كل شيء مدروس ومعدّ سلفاً لتفاضل بين حضورٍ قوي مهيمن ومليء بالحياة، وموت هو في الحقيقة فراق أبدي وقوي ومليء بالغياب الذي لا ترتجى منه عودة دائمة أو مؤقتة. لا عبور إلى الحياة من جديد، مهما بدت الصورة، أو مهما بدا صاحبها في الحقيقة قوياً ومخيفاً ومهيمناً.

في حديث الصور وإعلانها والمبالغة في تظهيرها وإبرازها دعوة إلى الحقد، فكلما تضاعف عدد الصور، اشتعلت في قلبك آثار الخسارات، وكلما رصفت الصور متلاصقة ومتسلسلة لتشكّل للمشاهد هرماً ضخماً من الخيبات والفجائع، بدا الجميع وكأنهم مطالبون بتسديد ثمن كل هذا الفراق، على الجميع أن يسددوا ثمن المحرقة المتقدة منذ زمن طويل، الخسارة بالخسارة، والحرقة بالحرقة، ونزيف الدم بنزيف أكثر سيولة. من قال إن القوة لا تموت؟ من أوهم كل هؤلاء الشباب بأنهم عصاة على الغياب؟

ثمة رسالة ضمنية يبثّون عبرها الخوف في جوف أعدائهم، لكنهم في الحقيقة، حينما يعتمرون جعبهم العامرة بالسلاح ويشهرونها بوجه العامة، أو بوجه المشهد اليومي، إنما يحاولون مجافاة الخوف وقتله في مهده، في قلوبهم المقسّاة، ليصيروا رقماً متسلسلاً في قائمةٍ طويلة يتبادلون عبره الغنائم، فهم يسدّدون حيواتهم، وغيرهم يحصّل ثمنها مزيداً من التحشيد والتجييش والحقد، كلهم يقولون لكم: هذا ابني ولن أسدد الثمن وحيداً. كلنا سنسدد قيمة قوانين الموت والخراب وحكايا لن تتوقف أبداً عن النزيف.

من قال إن القوة لا تموت، ولكنهم يترفعون قصداً أو يترددون في إظهار هذه الحقيقة، فلا صور قادمة من ميدان المعارك ولا مشاهد للراحلين في أوج ضعفهم، وهو ملقون على الأرض مضرجين بدمائهم، مغمورين بنقص خبراتهم، وغارقين في صدمة خيبتهم الكبرى حين ظنوا أنهم خُلقوا ليَقتلوا ويُميتوا ويخيفوا، لذلك كله حضّروا وحضّروا عبر كل تلك الصور المشحونة بالقوة وعلامات النصر، فلا خيار ولا فائدة من تعميم أحوالهم الموجعة في لحظاتهم الأخيرة حين يخافون ويموتون ويقتلون.

القوة تموت وادّعاء النصر أو تخيّله يموت أيضاً، وحدها الصور لا تموت، فما زالت شحنات الحقد المطلوبة منها مرغوبة، ومطلوبة، وضرورية، لإيقاد أتون القتل الحي والنشط. ليست الصور هي المصلوبة بمسامير الحقد والتجبّر والقوة الزائغة للضغينة والتناحر، بل أصحاب الصور هم المصلوبون الجدد بعد تنكّرهم بمظاهر قوّةٍ مخادعة، وبملامح حياةٍ يظنون أنها لا تموت أبداً.

اشتباك جسدي

يتوزع الأولاد على الأرصفة وعلى حافة الطريق، يمدّون أيديهم الضئيلة من شبابيك السيارات طالبين مبلغاً من المال.

«الله يخليلك ولادك، الله يحميلك شبابك، عشر ليرات لهاليتامى!».

يمر صباحاً من الطريق ذاته الواصل من مكان سكنه إلى مكان عمله، يستوقفه هذا المشهد البائس، لكنه يبحث بعينيه عن طفل محدد، طفلة بشعر طويل ومرمي على ظهرها، مخضّب بالحناء وكثيف، عارية القدمين، وعيناها الصغيرتان المدوّرتان تلمعان ببريق أخاذ يأسره.

تمد له يدها وتفتح فمها للدعاء والاستجداء، فتظهر سنّها المكسورة، يطلب منها الصعود إلى السيارة، فترفض وتبتعد.

في اليوم الثاني يعاود محاولته علّها تقبل طلبه وتصعد في السيارة، فتمعن في رفضها وتنادي أخاها الكبير، فيُظهر الرجل ورقة المئة ليرة بيده، فتصمت ويقول لها: «اطلعي بس شوي، بدي سمعك غنية».

تأخذ المئة ليرة تضعها في صدرها الطفولي الضامر، تجلس على المقعد وتقول له: «يلا شغّل المسجلة».

يضحك من كل قلبه فقد حصل على غنيمته، وغنيمته مهضومة وتعرف بالأغاني وبآلات التسجيل.

يصدح صوت المطربة، يباغتها ويباعد بين ساقيها، يضغط بيده القاسية ضغطة قوية وشبقة على أعضائها الحميمة، يلامس شعرها الملبّد من شدة قذارته، يمنحها عشر ليرات ويقول لها: هذه لأخيك وخبئي المئة ليرة لك فقط!

اعتاد الاثنان معاً، المعتدي والضحية، على هذا السلوك شبه اليومي الذي يتوقف فقط أيام العطل، وعند حضور الأب أو الأم.

إلا أن الطفلة، عندما تكتشف أمها غلّة ابنتها الثمينة مخبأة بداخل غلاف الفرشة الإسفنجية البالية، وتهدّدها بنقل الخبر إلى الأب المتوحش، تعترف بتفاصيل الاشتباك الجسدي اليومي، فتصادر الأم المئات المدّخرة، وتودعها في صدرها المترهل، وبلهجة متوعدة وحاسمة تقول لابنتها: «أكتر من هيك ما ترضي أبداً!»، وكأنها تقول لها بأن لا تتجاوز حدود هذا الاشتباك إلى عمق أكثر، واعدة الطفلة ببنطال جينز وكنزة جديدة على العيد القادم مقابل المئات الكثيرة التي صادرتها منها، وبأنها ستتقبل من طفلتها جني المزيد منها، ولو استدعى الأمر اشتباكات جسدية أكثر عمقاً.

صمت الغبار

بيوت تنشقّ عن جذورها، فيصير البيت عدة بيوت، على عجل تُهدم الجدران الفاصلة ويؤسس لشبكة الصرف الصحي ومياه الشرب، ثم تُسحب أسلاك الكهرباء لتأمين الإنارة ويسلّم البيت للمستأجر الجديد المنتظر تشطيب البيت الموعود منذ وقت طويل، البعض ينتظر سقفاً ليس غير، خاصة وأن إيجار البيوت على الهيكل أرخص بكثير، وبعد ذلك يتولى الساكنون الجدد أو النازحون الجدد مهمة تأمين الماء والكهرباء، بسرقتها مباشرة من المآخذ العامة، أما الأبواب والشبابيك والفواصل ما بين مرفق وآخر، فالنايلون السميك هو الحل، وان بحثت بين الأنقاض وغامرت بالحصول على بقايا باب أو شباك تكون غنيمتك وافرة ومربحة...

صباح اليوم انتقلت أم حازم وأبناؤها إلى بيتهم الجديد، صراخهم ملأ الحارة وأصوات ارتطام سقط المتاع بالأرض هزّ صمت الغبار الراكد على حافة الرحيل.

كل المتاع كان مخلعاً باهتاً وعابساً، لا هوية ولا توصيف ولا حتى مجرد تعريف لقطعة الأثاث العابرة أمامك، كله يصلح لكل شيء وكله

لا شيء. غربة في المكان، وغربة في الأثاث، وغربة مستقرة في الروح تنزف حنيناً وألماً لمكان كان أحلى البيوت.

يعشق السوريون بيوتهم كثيراً، يتخمونها بالأثاث والقطع الكهربائية وبالورود الخضراء والاصطناعية، بيوتهم ممالك شيّدت على بقايا أحلام بالسكن والطمأنينة، لكل الزوايا حكايا عشق وتواريخ غارزة في الوجدان، كيف لهم أن يهدموا بيوتاً لم يكمل أصحابها تسديد أقساط قروضها؟ كيف لهم أن يغتالوا كل التفاصيل والحكايا المحفورة على الأريكة والسرير وقبضة باب الثلاجة؟

زغرودة تصدح في الهواء، وأم حازم تدخل بيتها الجديد وبيمينها حوض من الورد المتفتّح، بيت جديد على أنقاض بيت صار بعيداً جداً، صار مجرد رماد وذكرى. يعشق السوريون بيوتهم كثيراً حتى لو صارت خيمة أو مجرد ذكرى.

في اليوم الثاني جاء موظف طوارئ الكهرباء وقطع الكبل الذي تسرق منه أم حازم الكهرباء مباشرة من العامود الرئيسي، وهددها بالسجن والغرامة، فضحكت من كل قلبها، ثم أعادت، وظلت تعيد وصله من جديد فور رحيل الموظف.

لقد غيّر السوريون من توصيفهم لبيوتهم، تناسوا عمداً عدد الغرف واتجاهات الشمس ولون خشب الأبواب، سخروا من أوراق الطابو ووثائق إثبات الملكية وحدود البيت العقارية وضريبة الخدمات، صار السوريون مولعين بسقوف تحميهم من البرد والرصاص وصار صمت الغبار بديلاً عن ثبات الجذور في أرض غريبة وبعيدة.

ريما

أسراب من الفراشات البيضاء تطوف في المكان، تقترب من وجوهنا، تتراجع نحو الأسفل وتحط على بضع ورود، وتعاود الارتفاع قريباً منا. تتجمع على شكل قلب أو دائرة، ولا تبتعد وكأنها تأنس وجوهنا باثّةً الفرح والرضا في أعماقنا.

تسأل الطفلة أمها: هل أختي ريما واحدة من هذه الفراشات؟ تجيب الأم المكلومة: أختك بعيدة جداً، هي الآن طائر ملوّن في الجنة.

عامان كاملان انقضيا على موت ريما بقذيفة اخترقت سطح غرفة النوم حيث كانت شبه نائمة على سريرها بانتظار رضاعة الحليب التي كانت تحضّرها أمها لها، نادت الأم لمها الابنة الكبرى لتنهض من سريرها الملاصق لسرير ريما، كي تأخذ منها رضاعة الحليب وتلقمها لأختها. صوت ارتطام مهول، شظايا وغبار، والمحصلة أن ريما صارت أشلاء.

لا تتذكر مها نعشاً لأختها ولا جنازة، ولم يتمكن أحد من العائلة من رؤيتها وهي مهشمة ومفتتة إلى مجرد أشلاء.

تركوا البيت بعد الحادثة حوالي الشهرين ريثما انتهوا من إصلاح سقف الغرفة وطلائها وتنظيفها.

رفضت مها النوم في الغرفة المشؤومة رغم الألوان الزاهية التي طُليت بها، كما رفضت النوم في سريرها، بعد أن أخرجته أمها من تلك الغرفة ووضعته ملاصقاً لسريرها.

قالت مها لأمها: الجنة بعيدة جداً وأنا مشتاقة لريما كثيراً، وخالو سامر يعرف مكان ريما أكثر منك لأنه هو من دخل الغرفة بعد احتراقها واختراق القذيفة لسطحها، هو من حمل ريما وأخذها للمشفى، وعندما سألته عن المكان الذي أخذوا أختي إليه أجابني بأن ريما تحوّلت إلى فراشة بيضاء جميلة وطارت في السماء، ووعدني بأنني سأراها في السماء قريباً.

تطوف أسراب الفراشات البيضاء فوق رأس مها، وتتوقف هناك لبرهة من الوقت، تحاول الأم إبعادها لكن مها تصرخ بأمها قائلة: اتركيها، فريما واحدة منها وقد سمعتها توشوشني.

مجرد عزاء

نجوى محزونة، مات شقيقها الوحيد، اتصلتُ بها معزية بالفقيد العزيز، أجّلتُ كل الأسئلة حتى لحظة زيارتها الواجبة، لكني ركّزت على سؤالها عن توقيت توفّر الكهرباء وانقطاعها.

كانت تسكن في حيٍّ راقٍ وأبنيته برجية ومرتبة ومكسوة بالحجر، ومن سمات الأحياء الراقية انتظام تقنين الكهرباء فيها، فتأتي بموعد وتُقطع بموعد.

وصلت إلى فناء البناء المهول، صعدت بالمصعد وضغطت على الرقم 11 حيث تسكن. واصل المصعد الحديث صعوده حتى الطابق الثامن وحصل ما لم يكن بالحسبان، فقد ربطت ساعة قدومي بتوقيت توافر الكهرباء وبهامش أمان مقداره نصف ساعة عن موعدها الثابت. لكن شيئاً ما حصل، قلت عطل بسيط وستجيء فوراً، مضى عشرون دقيقة كاملة وأنا في خضمّ بحر معتم وساكن، عندئذ جرّبت جرس الإنذار قائلة في قلبي ربما يكون العطل ميكانيكياً، لكنه لم يستجب وعرفت أن بطاريته قد جفت وانتهت طاقتها التشغيلية.

من المصعد، اتصلت بصديقتي، وحمدت الله مرات ومرات لتوفر

التغطية، لأنها غالباً تنقطع فور انقطاع الكهرباء، وعندما أعلمتها بغرقي اللامتناهي في بحر الظلمات طالبةً منها إبلاغ الناطور بضرورة تشغيل المولدة، أجابتني والرعب ينتقل إلي عبر صوتها المرتجف: لا يوجد مازوت لتشغيل المولدة، والناطور غير موجود لأنه خرج لدفع فواتير المياه لسكان البناء بعد أن اطمأن لوصول الكهرباء.

أُسقط في يدي واستسلمت لفكرة الاختناق ثم الموت، جلست أرضاً كي أُطيل من ساعات احتضاري محافظة على حصّتي من الأوكسجين الكامن في الأسفل، وحرصاً على ثبات ساقيّ المرتجفتين خوفاً، اتصلت بي صديقتي مراتٍ متتالية لتؤنس عتمتي ووحدتي. لكنها في الاتصال الأخير أعلمتني بأن شحن جوالها سينفد ولن تتمكن من الاتصال بي مجدداً، لكنها ذكرت لي بأنها هاتفت الناطور للعودة سريعاً.

مضت ساعة كاملة على وجودي هناك، رثيت نفسي مراراً وتلقيت العزاء فيها مراراً، تذكرت أفراد عائلتي الواحد تلو الآخر، بدأ نَفَسي يضيق ولساني يثقل ولعابي يجف، أخرجت حبة من السكاكر بنكهة النعناع ووضعتها في فمي، فانتعشت قليلاً، حاولت البحث في حقيبتي عن حبة دواء تنشّط القلب أو تهدّئ الرعب المشتعل بضراوة، رنّ جوالي وكانت صديقتي هي المتكلمة لتطمئنني على وصول الناطور بالسلامة.

تك.. تك.. تك.. أضاءت السيدة العظيمة صاحبة الجلالة الكهرباء. تنفست الصعداء ووثبت من جلوسي، لكن أزرار المصعد كانت خارج الاستجابة، ضغطت على زر الفتح والإغلاق محاولة فتح الباب متجاهلة أرقام الطوابق، والمصعد يصعد ويهبط، ويكرر الصعود والهبوط، إلى أن توقف وفُتح بابه، فاكتشفت أنني في الطابق -1 أي في القبو المعتم.

خرجت مسرعة أفتش عن مدخل لصعود الدرج، وجدته بصعوبة لأنه كان مواربا وفي أقصى الاتجاه المعاكس لبئر المصعد، ثلاثون درجة

ووصلت إلى المدخل، خرجت من بوابة البناء، ضغطت على جرس بيت الصديقة المحزونة، تلوت عليها (بالإنترفون) كلمات العزاء المتداولة، لم تطلب مني الصعود أبداً، هنّأتني بالسلامة واعتذرت عما ليس ذنباً لها.

في النهاية قلت لها ساخرة: لقد كانت مشاركتي لك بالعزاء مواساةً حقيقية، فالحي أبقى من الميت، وقد شغلتك عن حزنك على موت أخيك بالانشغال بي لساعة ونصف كاملة.

ضحكتْ وضحكتُ ووقفتُ أستنشق ما يعيد إليّ توازني وإحساسي بالنجاة.

حمّالة صدر

كيس بلاستيكي شفاف وكبير الحجم معلّقٌ باليد اليمنى لحاوية القمامة، تبدو بداخله كومة ناصعة البياض من الملابس الداخلية.

كان الكيس يحمل رسالة واضحة تقول: أنا هنا... نظيفٌ وكبير وواضحٌ للعيان فالتقطوني!

تقدّمت امرأة وسحبت الكيس، لكن عامل النظافة انقضّ عليها كالقضاء المبرم وصرخ بوجهها قائلاً: اتركيه.. هذا لي! زمجرت بعد أن أحكمت قبضتها على الكيس وشدّته إلى صدرها رغم ثقل وزنه، وقالت: أنا من سبق وأخذه، هو لي وحدي.

افترشت حافة الرصيف وفكّت عقدة الكيس المشدودة بإحكام، فهالها سطوة البياض الساطع للملابس ورائحة النظافة النفاذة، وشهقت قائلة: ما أقوى قلوب أصحابهم! كيف لهم أن يرموها وهي بهذه الحالة الجيدة؟ وتساءلت بينها وبين نفسها والدهشة تملأ أنفاسها: هل ماتوا؟ هل رحلوا جميعاً؟ هل ربحوا ورقة يانصيب؟

كرر عامل النظافة طلبه الحصول على الكيس تحت ذريعة أنه الوحيد

المؤتمن على المكان، وأن الحاوية هي ساحته وملعبه لدرجة تكاد أن تكون من قائمة أملاكه الشخصية.

كررت رفضها غير عابئة بوقوفه قربها وقبضتاه معقودتان في تهديد مبطن ووعيدٍ مرّ يتسلل عبر أنفاسه الخشنة.

بدأت بالتعرف إلى الملابس قطعة قطعة، غمرتها السعادة، فالقطع جديدة تماماً ونظيفة ومرتبة وجلّها نسائية، دون أن تنظر في وجهه قالت له بتذاكٍ وتسلطٍ ومنيّةٍ استعلائية: «أنا ما عندي زلم، كل شي زلّامي إلك».

وافق وقاسمها الرصيف وجلس بقربها، وابتدأا جلسة مسامرة ودودة تبادلا خلالها المواجع والنكات والتعليقات.

تحوّلت شحنة العداوة الأزلية حول اقتسام الإرث وحمى التنافس على غنيمة بلا صاحب، تحوّلت إلى شراكة شبه عادلة. حكت له بأنها تعيش مع ثلاث بنات إحداهن مطلقة ولها بنت صغيرة، إضافة إلى كنّتين ضيّعت الحرب رجُلَيهما مع أبنائهما الخمسة.

برشاقة المتمرس الخبير فرزت الملابس حسب العمر والمقاس، وكلما وجدت قميصاً أو سروالاً رجالياً كانت توضّبه بعناية وتمنحه لشريكها الجديد، الذي استرخت قسمات وجهه كلها، وجلس يدخن سيجارته باستماع المهيمن المرحّب به والممنوح ما يسرّه وما يفرحه.

كلما قلّبت قطعة أنثوية من الملابس كانت تهبها اسم صاحبتها الجديدة من أفراد عائلتها، حتى السراويل الداخلية فرزتها حسب ارتفاع سرجها أو هبوطه، فهذا لهيفاء لتخفي بطنها الكبير، وذاك لآية كي لا تعلّم حروفه تحت سروال الجينز الضيق.

قلّبت حمّالات الصدر واشتكت من بياض لونها الذي لا يلائم ملابسهن الداكنة التي اعتدن عليها لسهولة غسلها ورخص أثمانها.

بغتة سألته: «قديش قياس سوتيانة مرتك؟»، ارتبك واحمرت أوداجه، لكنه بعد تحديق سريع وعابر بجسدها وبعد ادعاء زائف لترفع عن التحديق بتفاصيلها أجاب: «بالرقم ما بعرف بس يعني قد صدرك».

غرقا في ضحكات عفوية وتجاوزا خجل الغربة، وتوّجت صحبتهما بأن منحته فوراً حمّالة صدر قائلة له: «هي هدية مني لمرتك!».

انتقلا من لحظة عدائية نحو احتفالية طارئة على حياة البشر حين تداهمهم الحرب وتحرمهم من كل شيء، من بيوتهم وطمأنينتهم، حتى من حمّالات الصدور والسراويل الداخلية.

كانت الاحتفالية مدعاة للتقرب من البعيد الغريب، دعوة للانهماك بتفاصيل الحكاية والبوح، وبغربة الروح والجسد.

ربطت متاعها بقماشةٍ صرّتها كالبقجة وتركت له ضمن الكيس الشفاف الكبير كل القطع الرجالية مع حمّالة صدر لزوجته.

تبادلا أرقام الجوالات وعبارات الود ووعوداً بتقاسم أكثر عدلاً لغنائم أخرى إن توفرت لأيٍّ منهما.

تبادلا وعداً أو موعداً للقاء قريب في المكان نفسه عند اليد اليمنى لحاوية القمامة حيث تتوفر دوماً احتمالات جمة للقاءات ذات فرح ومنفعة.

دحلة أحمد

يقف سعيد على باب محل العطور الذي يعمل فيه بعد انتهاء الدوام المدرسي، يجفل فجأة ويضطرب، يروح ويجيء في مكانه يلتقط شيئاً ما بدا وكأنه دحلة تكرج في زاوية الطريق.

يقترب من صاحب العمل ويسأله بلهفة: معلمي هل رأيت أحمد؟ يبتسم المعلّم بخفة واستهبال وكأنه يسخر من سعيد.

لكن سعيد يعاود السؤال وعيونه سارحة في البعيد، روحه شاردة وضالة على امتداد مئات الأميال وثلاثة أعوام كاملة من الزمان.

واقفة على الباب، أراقب فوضى المشاعر التي تغمر سعيد، أناديه ولا يسمع، يواصل اغترابه عن المكان والزمان، غير قاصدٍ وغير قادرٍ على ذلك أيضاً، لكن عبور الدحلة المميزة والفريدة من نوعها كانت مفتاحاً لنبش عمرٍ بكامله من الشوق والانتظار.

سعيد وأحمد، فتيان بعمر الرابعة عشرة، هجرا منزليهما ومنطقتهما الساخنة، كل عائلة قررت التوجه بوجهة محددة حسب إمكانية رب العائلة على استئجار منزل بديل.

اشتهر سعيد وأحمد بين أبناء حيّهما بالمهارة في لعب الدحل، وكانا يغنمان يومياً العشرات منها، يتبادلان بعضها حسب اللون أو حسب الرغبة المحضة باقتناء المزيد.

وكانت الدحلة التي تملك اسم الدولاب نادرة، وهي موصوفة بانسيابية حركتها وسهولة إصابتها لرأس الدحاحل الأخرى.

امتلك كل من سعيد وأحمد واحدة منها، وكان ذلك مصدراً للغرور والتباهي، إلا أن أحمد فقد دحلته في إحدى زياراته لبيت جده، وطالما طلب من سعيد منحه دحلته المميزة، لكن طلباته كلها ذهبت أدراج الرياح.

بعد طول معاناةٍ مع القصف وخطر القذائف وإغلاق الحي لأيام وأيام قررت العائلات النزوح، كان سعيد متأكداً من أن الأيام ستفرّق بينه وبين أحمد، وبأنهما قد لا يلتقيان أبداً. خطر على باله فوراً أن يمنح دحلته الفريدة لأحمد، وهكذا كان. اليوم وبعد ثلاث سنين، ظهرت الدحلة، تدحرجت فجأة أمام عيني سعيد، فظنّ أن أحمد في المكان، وهاله أن أحمد قد مرّ من أمام عينيه ولم تتسنّ له رؤيته.

كررت سؤالي لسعيد عما يشغله محاولة تبديد مخاوفه والتخفيف من نوبة الألم التي اعترته، كان ثمة خوف يضاهي الألم حزناً. خوف من تنكّر أحمد لسعيد أو عدم التعرف عليه. سألت سعيد: لقد مرت سنون ثلاث، ولقد تغيّرتما كثيراً فلن تتعرف عليه بسهولة، لكنه وبحزن بليغ أجابني حتى لو صار أحمد هرماً فسأتعرف عليه.

يقبض على الدحلة بأصابعه، صامتاً، يحدّق بالعابرين في المكان، يحاكي نفسه معللاً إياها بوعد اللقاء الأكيد مع أحمد.

ربتُّ على رأسه، دعوته لشرب الماء، لكن حزنه كان أكبر من كل المسكّنات والكلمات المهدئة.

قطع صمته وقال: مستحيل أن يكون أحمد صاحب هذه الدحلة، لو كان هو من مرَّ من هنا لرآني حتماً. أكّد لنفسه هذه الهلوسات طامعاً في تثبيتها على أرض الواقع.

شرب كأس الماء، قلّب الدحلة مرات ومرات بين يديه، وضعها في جيب بنطاله، أبقى أصابعه قابضة عليها.

طلب إذناً من صاحب العمل وغادر إلى المنزل، رغبة منه بالشكوى لأمه أو للراحة بعد عناء التذكر والحنين، أو ظناً منه بأنه قد يجد أحمد هناك على باب البيت، فيطول اللقاء.

جلابية خمري

في كل مساء تصل زكية وابنتاها إلى الساحة حيث تقف العربات التي تبيع الألبسة المستعملة، تسير صامتة وقلقة، تفتش في سقط الألبسة والمتاع، تبحث عن شيء محدد.

منذ أن سمعت بأن بعض المهجّرين من بيوتهم قد وجدوا بعضاً من أغراضهم على تلك العربات وهي تتردد يومياً إلى هذه الساحة.

تقلّب في الفساتين والملابس الداخلية والشالات والأحذية. لا تعلّق على شيء ولا تسوم سعر أية قطعة، تكرر تقليب البضائع المرمية بإهمال وازدراء وابنتاها تقفان خلفها كالنواطير، ترصدان حركات يديها، تعابير وجهها، وتبقيان واقفتين إلى أن تنتهي الأم من مهمتها اليومية، ولحظة انطلاقها في السير هي لحظة العودة.

ظنّت النسوة المتابعات اليوميات لبضائع العربات طمعاً في بنطال رخيص أو كنزة دافئة لهن أو لأطفالهن، ظنن أنها خرساء، لكنها كانت تسمع وتتكلم، وقد اختارت خرساً طوعياً، فلا قدرة لها على التكلم مع الأرواح الهائمة الملقاة هنا كالجثث، لا قدرة لها على التأكيد لنفسها بأن ملابسها مسفوحة هنا وكأنها هي ذاتها بكامل عريها.

صارت النسوة يفسحن لها المجال، واعتاد الباعة على حضورها شبه اليومي، لا يتوجهوا إليها بأي سؤال أو تعليق، لكن نظرات الإشفاق تطولها وابنتيها، بصمت مشابه لصمتها.

ذات مساء تجاوزت كل العربات ومضت باتجاه الأخيرة فوراً، كانت أسنانها تصطك وبدا لون وجهها قرمزياً، سحبت جلابية خمرية اللون مقصّبة عند الصدر، تفحصتها طويلاً بعد أن لبت نداءها بأني هنا، فتعالي إليّ.

قرّبتها إلى أنفها وشمّتها بعمق، نفرت الدموع من عينيها، وتضرج وجهها بحبيبات قرمزية داكنة وتيبست يداها، سحبت الجلابية ووقفت بمواجهة الحائط وظهرها للبائع وللمارة، بدأت بتمزيق حدود الجلابية، وتمزيقها قطعاً قطعاً إلا أن القسم المطرّز كان صلباً استحال عليها تمزيقه بيديها فما كان منها إلا أن وضعته بين أسنانها التي استحالت كالكماشة وبدأت بتمزيقه نتفاً إلى أن انتهت من مهمتها.

لم تنظر في وجه البائع، ولا اهتمت لنظرات المارة الذين كانوا يراقبونها، لم تتردد في إعلان صوت التمزيق عالياً دونما وجلٍ أو أدنى خوف من تدخّل للبائع أم لسواه.

استدارت وأومأت لابنتيها بالسير، لكنها هنا أصبحت عاجزة عن المسير، انتبهت الابنتان لحال الأم، أمسكتا بها كلٌّ من كتف، وهمست كل منهما بكلمة ما بكل أذن، اشتد عود الأم وارتخت مفاصلها المتيبسة، وسارت بين ابنتيها، صامتة كعادتها، حازمة وحزينة كما ينبغي لامرأة جرّدت من كل تفاصيل العيش وسلمت تفاصليها هنا رغماً عنها وبرسم البيع.

عرس مبارك

تقترب جورية بحذر من مكان العرس حيث تصدح الموسيقا والزغاريد، تدقق في الوجوه وتحاول تحديد بعضها علّها تتمكن من رؤية وجهين محددين تشتاق إليهما بشدة.

اليوم هو موعد عرس ابنتها الكبرى، هكذا سمعت من الجيران ولم يخبرها أحد بذلك، محرومة هي من ابنتيها منذ عشرة أعوام، وقد ألزمها القاضي بعدم الاقتراب حتى من مكان سكنهما مع أهل أبيهما تحت ذريعة أنها مجنونة، وأنها ستتسبب بالأذى لكلتيهما.

حزَّ في نفسها ألا تتصل بها ابنتها العروس التي أغلقت سماعة الهاتف مرات ومرات بوجهها شاتمة إياها بأبشع الشتائم، ناعتة إياها بالخرفانة والمريضة نفسياً. لكنها لم تتمكن من السيطرة على رغبتها برؤية ابنتها عروساً في يوم عرسها، وكانت متأكدة من أنها ستصيد عصفورين بحجر واحد وستتمكن من رؤية الطفلتين.

تحرك الموكب وبان جلياً رأس العروس ووجهها ووجه أختها المرافقة لها، لم تسعفها الدموع، لكن سكيناً جارحة انغرست في صدرها الممزق

وقالت: «يا الله قديش كبرانين!». لم تعرف ما أصابها، هل تفرح لأن ابنتيها بخير وفائقتا الجمال، أم تحزن لفراقهما وتنكّرهما لها.

استفاق الحزن القديم كله، قسوة الزوج، الحرمان من زيارة أهلها، قسوة الحماة وبناتها، حرمانها من ضم بناتها إلا ساعة الإرضاع.

استفاقت صدمة الحزن الأولى، عندما لم تُسأل عن رغبتها باسم الطفل القادم، ولم تُسأل أيضاً عند ولادة الابنة الثانية، وبعد وفاة الزوج حُرمت حتى من النوم مع ابنتيها بعد أن صادرت العمّتان سرير الزوجية وغرفة النوم وبتن ينمن فيها مع الابنتين.

شهور قليلة لم تكن كافية حتى لنسيان حزنها على فراق زوجها وسطوة الفقد الموجعة، لتواجه بزوج العمة الكبرى يوصلها إلى بيت أهلها وحيدة حتى من صور ابنتيها ومن ملابس الحداد، رجت والدها بأن يعيّن لها محامياً لاستعادة الطفلتين، لكنه تعذر بالفقر وضعف الحال.

مرّت شهور قليلة وصدر حكم المحكمة بعدم صلاحيتها لتربية ابنتيها، مرفقاً بتقرير يؤكد إصابتها بمرض نفسي يلحق الخطر بالطفلتين، ومن ذلك اليوم لم تتمكن حتى من رؤيتهما.

حاولت الاتصال بهما، لكنها تلقت بدل الردّ اتهامات موغلة في القسوة والوجع، تنكّرت الابنتان لأمهما.

حاولت زيارتهما في المدرسة، لكن المديرة اعتذرت بحجة أنها مطلعة على وضعها الصحي ولا تتحمل أية نتائج.

حبل الذاكرة يمتد ويمتد، وتفور الأحزان، وموكب العروسين يتقدّم ويتقدّم، يقترب منها، تفكّر بأن تصرخ: ماما، أنا أمكم!

تفكّر بأن تلقي نفسها أمامهما وليكن ما يكن، لكنها تتريث، لأنها لا تقوى على تطريز يوم عرس ابنتها بالأحزان، تخاف أن يطردوها وأن تتأكد الابنتان حينئذ من جنون الأم.

تقترب العروس من السيارة، تساعدها أختها على الصعود، تتابع الأم المكلومة لحظة التوقف البطيء وتحدّق بهما، تحدّق لدرجة تشعر معها أن عينيها قد تحوّلتا كرتين من دم ونار.

تقترب أكثر، تحشر نفسها بين الجموع، تلمس طرف الفستان الطويل، تفلّيه، تقول: «مبارك يا روح الماما»، ويتوقف الزمان.

يسير الموكب وتبقى مسمّرة في الفراغ، في العدم، في اللاتوازن، تحثّ الخطا علّها تلحق بالسيارة وتملّي ناظريها بغمرة جديدة.

لكن هيهات، تومئ لسيارة العروسين بيديها، ترمي قبلات في الهواء وتكرر: «مبارك يا روح الماما!».

سوق الحياة

الحياة، تلك الشهية التي لا تريد الحداد على أحد. في مدن الموت يقاتل البشر على جبهتين، الأولى من أجل البقاء أحياء، والثانية كي يغتنوا أكثر بالحياة، فينجون من مصيدة الموت شهوداً عابرين على نثر الموت كالورود على حياة المدن.

في الحرب يحضر سوق الخضار شاهداً أصيلاً على عمق الوجع، يفكّك المشهد في بنيته النقدية الصارخة ولا يكترث بالردود.

ثمة اقتصاد موازٍ ينمو ويزدهر، تباع فيه نفايات الخضار، كسرات الخبز، بقايا معلبات تالفة أو مضروبة، لا مصداقية للبضائع المعروضة، ذابت المسروقات في السوق كالثلج ومصيرها أن يتقبلها البشر كماء السواقي.

تجيء السيدة مع ابنتها تفاصل البائع وتجادله حول سعر الفول الأخضر لتفوز بالنهاية بعرض سخي لم تكن لتحلم به، ثلاثة كيلو غرامات ونصف بخمسين ليرة فقط لاغير. سعر لا يساوي السعر الاعتيادي لربع كيلو غرام.

لكن ابنتها تشدّها من يدها، والأم لا تكترث، تحاول الهمس في

أذنها، لكن الأم تواصل تجاهل ابنتها، تسأل البائع عن جرزة كزبرة، فيدلّها إلى كرتونة مركونة جانباً، تأخذ منها ثلاثاً وتشكره دون أن تنقده مليماً واحداً، يصرخ فيها، ينادي لها، لكنها تتجاهله كما تجاهلت ابنتها من قبل، لكن الابنة تعود وتقول له بلغة لا تلائم عمرها: «سامحنا عمو.. أصلاً أمي ما معها ولا ليرة».

اعتاد أبو علي على وجوه الزبائن، يميّز الوجوه حسب البضاعة، يعرف البشر من أسئلتهم، من سمات وجوههم، يسعّر المادة حسب حالة الزبون المشتري المادية، لم يتُه يوماً في قراءة وجه من الوجوه ولم يظلم مظلوماً.

اعتاد أصحاب الحاجة على المرور بدكانه بعد الثامنة مساءً، لأن زهوة الخضار تكون قد نفدت، وبات يحضّر نفسه منذ الثامنة أيضاً، يرتّب الصناديق الكرتونية ليركن فيها كل البضاعة غير القابلة للبيع، كل الخضراوات الذابلة والذاوية الرخوة.

بالأمس جاءه طفل وبيده عشر ليرات يريد بها تمراً، تطلّع أبو علي في وجه الطفل متأملاً ملامحه التي تنطق شهوة لا فكاك منها، قال للطفل: «الكيلو الواحد بستمئة ليرة والكيلو يتكون من أربعين حبة لا أكثر، بما معناه أن التمرة الواحدة بـ 12 ليرة»، لم يجبه الطفل، لم يعترض على حساباته ولا على سعر كيلو التمر، أودع العشر ليرات الغالية جداً عليه في جيبه وهمّ بالمسير، نادته امرأة وقالت لأبي علي: «أعطه عشر تمرات وأنا أحاسبك»، احمرّ وجه الطفل، وقال: «شكراً يا خالة»، لكن الخالة أصرّت، ومنحه أبو علي التمرات العشر وحاسبته الخالة، لكن الطفل وهو خارج ناول الليرات العشر لأبي علي قائلاً: «عمو كارمني وأعطني تمرة إضافية لأختي!».

للسوق لغة يتقنها وحده، يقرأ الوجوه ويفكك حروفها المبلكمة،

للسارقين حصة، للفقراء حصة، لقليلي الدخل حصة، للأطفال العابرين المتذرعين بضربة أياديهم الغضة بمفرش البسطة كي يستولوا على حبة خوخ أو كرزتين حصة أيضاً.

السوق كما المدينة لا يموت ولا يرتدي الحداد على أحد، لكنه لا يحيا إن لم يحي البشر، وهو يحييهم من عمق مواتهم، يحييهم غصباً عنه وعنهم، بالقوة كما يقولون، بالقليل القليل كحقنة السيروم، لكنه يدرك تماماً أنه، بلا عبورهم اليومي، بلا وقع خطواتهم المترددة وأمعائهم الخاوية، سيذوي ويموت.

السوق كما المدينة لا يرتدي الحداد على أحد، ويحيي أنفاس الناس حتى في نزعها الأخير كي تبقى له ويبقى لها، وكي لا يرتدي العابرون ما بين جوع وفوز بما يسد البطون ملابس الحداد على سوق هو المدينة ذاتها، وهو ذاك الظل الإلزامي المقيم ما أقامت الحياة.

برسم الطلاق

أسمع صدى نقرات متسارعة على باب الغرفة، تطلب مني نور قلم أحمر الشفاه الزهري الداكن ووشاحاً ملوناً، أسألها: أثمة عريس اليوم أيضاً؟ بزهوّ، تومئ لي برأسها وتردد فوراً: «على السويد».

تخرج وأغرق في حزن لا يغادرني، حال نور وأهلها يسبب لي صداعاً مزمناً، فهم مصرّون على تزويج نور، الطالبة في السنة الرابعة في كلية الاقتصاد، من أي عريس مهاجر إلى السويد أو ألمانيا تحديداً، هكذا قررت نور وأمها بأنها ستكون بوابة العبور لإخوتها الشباب الثلاثة، فهم لا يملكون أجرة الطريق إلى الجامعة، فكيف لهم أن يمتلكوا أجرة الهجرة إلى أوروبا؟!

والأمهات يُصررن على أن يعقد أبناؤهن المهاجرون قرانهم على فتاة سورية قبل هجرتهم، تخاف الأمهات من الزوجة الأجنبية ولا تخاف من أمواج البحر الهادرة والمجنونة أن تبتلع أبناءهم.

لم يعد مهماً عمل الشاب ولا علمه، لا عائلته ولا مقدرته المادية، لا جماله ولا قوّته، المهم أن يفتح باباً موصداً لعائلة بأكملها. لا حفلات

خطوبة ولا عراضات للزواج، أغلقت صالات الأفراح أبوابها، وإن كان ثمة حفلة للعرس فهي لبضع سيدات ودون حضور العريس من أصله.

أعادت نور ما اقترضته مني وبدأت بالكلام حتى دونما سؤال: «على السويد يا مهاجر، غير متعلّم، لكنه شاب صغير وحلو الشكل، سنقرأ الفاتحة غداً ويسافر، وقد أوكل عمه بإجراء كل الإجراءات المطلوبة، المهر غير مقبوض والمؤخر بيت بدمشق، وواضح أنه لن يتم، ولن يكون».

تقول نور: «إخوتي طايرين من الفرح، أمي تزغرد، وأنا سعيدة جداً!». أضربها على رأسها بأن استيقظي، هذا زواج، هذا عمر طويل، تريّثي، اختبريه قليلاً، أعطي نفسك فرصة التعرف إليه. تصمت وتغرق في عالم التخيّلات، سنة على أبعد حد أكون قد وصلت إلى السويد، سأرسل بطلب أخي الأصغر أولاً ثم أمي وبعد ذلك أخواي.

هي ليست معي، في عالم آخر، أعتقد أنها قد وصلت إلى مطار استوكهولم واستقرت هناك، أنبّهها إلى احتمال عدم تقبّلها له، نفوره منها، تغيير رأيه بعد وصولها إلى هناك. تمعن في عوالمها المتخيّلة، لا أحد، ثمة ضوء شحيح لأنفذ منه إلى نفق تفكيرها المرعب المشرعن من قبل العائلة.

تُرهن الشابات للمجهول، تُبَعن بسوق نخاسة حدوده أوروبا وأحلام الوصول إلى معابرها كلاجيئن.

أحاول إخافتها من الغربة، من القسوة، من احتمال الانفصال. تباغتني بجواب حاسم ومرير: «حتى الطلاق من هونيك غير!».

في اليوم الثاني أسمع زغرودة وحيدة وقصيرة، يقضي العريس ساعة إضافية بعد رحيل أهله، وغداً في الصباح سيركب قوارب الموت ويسافر، لا شيء معه، إلا خاتماً فضياً رخيصاً وانتظاراً لوصول الزوجة وحلماً أوليّاً بالوصول سالماً، حلمٌ افتراضي بالعيش، فاللجوء، فالزواج.

ونور، حتى قبل ارتدائها لخاتم الخطوبة، موعودة بأن الطلاق هناك في استوكهولم البعيدة والغامضة، يسير جداً وحلوٌ جداً، إنه بوابة العبور لها ولعائلتها نحو حلم اكتسابهم لوسامٍ مجنّح ورائع اسمه اللجوء.

سراويل جينز

رنينٌ طويلٌ وصاخبٌ للموبايل، لا يتوقف أبداً، من الواضح أن صاحب الاتصال مصرٌّ على إرغام صاحبة الموبايل أن تردّ على اتصاله.

تنهرها صديقتها قائلة: «فضحتينا، ردي وخلصينا!»، لكنها تمعن في صدّها ورفضها للاتصال وصاحبه، فتحوّل وضع هاتفها إلى وضعية الصامت وتتابع حديثها باعتيادية منفرة ووقحة.

هذه هي المرة التاسعة على التوالي التي يتصل فيها خطيبها وهي ممعنة في عدم الرد على اتصالاته، وعدم الرد لا ينبع من خلاف أو قطيعة بينهما، ولا من جفاء أو برود في الحب، لكن زينة أعلنت أمامه وأمام أهلها أنها لن تتزوج من خطيبها أمجد أبداً، وكانت تردد دوماً بأن الظروف غير مواتية أبداً للارتباط، وطبيعي أنّ مثل هذا الجواب غير قابل للتصديق أبداً من قبل أي أحد وخاصة أمجد.

تسكن زينة وأمها وإخوتها السبعة في غرفة واحدة، غرفة أقرب إلى الجحر، معتمة وبلا نوافذ، مجرد فتحتين مظللتين بشبك معدني قديم، تطل مباشرة على الرصيف لدرجة تلامسه بشدة. خلف الباب فوراً وضعوا برميلاً بلاستيكياً داكناً وضعوا له صنبوراً وأصبح خزّان ماء

وحوضاً للجلي ومأخذ ماء للاستحمام، الغرفة مفروشة بالحصر والفرش الإسفنجية الرقيقة، ويدفعون إيجار هذا الجحر اللاآدمي خمسة عشر ألفاً كل شهر، المرحاض مشترك والجدران بلا طينة ولا دهان.

هي البنت الكبرى بين ثمانية أولاد، عملت في معمل للشامبو فتحرش بها صاحب العمل، ثم في البيوت مع جارتها، فاهترأت رئتاها من التحسس من مواد التنظيف والكلور وعوادم السيارات.

أسرّت لها صديقتها بأن تمتهن الخروج مع الرجال في سياراتهم، وأصرّت: «السيارات فقط، وكل شيء «من فوق لفوق»، وكل شيء بثمنه»، تمنّعت وخجلت من نفسها، وفكرت بأمجد وبإخوتها وأمها وباسم أبيها الغائب، ترددت كثيراً ووافقت في النهاية، كان الموعد الأول مع رجل خمسيني نتن الرائحة وأصلع، وله صوت مزعج يصدر من أنفه كالتنشّق الخشن، وكأنه خنّة لمصاب بالرشح الدائم.

كان المقابل المطلوب للّقاء سروال جينز، عاينته زينة قبل يوم من الموعد، ووافت الرجل إلى عنوانه وخرجت وانتهى اللقاء، لكنها اكتشفت في النهاية أن السروال الجينز المقدّم لها ثمناً للّقاء كان الأرخص والأبشع. عادت إلى البيت وأخبرت أمها وأمجد بانها لن تتزوج أبداً حتى يعودوا إلى بيوتهم، وتصنّعت النوم وغرقت في مرارتها مرمية هناك على فراش إسفنجي رقيق، ومغطاة بغطاء صوفي له الرائحة ذاتها للرجل النتن الذي خرجت معه اليوم.

تتالت المواعيد وفي كل موعد كان المقابل يتغيّر حسب الحاجة، واكتست وإخوتها سراويل جينز جديدة وغالية الثمن، ثم غيّرت هاتفها المحمول، وبعد ذلك غيّرت طريقة لباسها بالكامل، وكثرت مواعيدها وكثرت شالاتها الملونة والفاقعة، علا ارتفاع كعوب أحذيتها، وفي النهاية انتقلت مع أهلها إلى بيت مفروش في المنطقة نفسها، صغير،

لكنه مشمس، وفيه حوض معدني للجلي وسخّان للاستحمام وغسالة أوتوماتيك.

اعتادت العائلة أن تستعمل وتلبس كل ما تحضره زينة دونما أي سؤال عن المصدر، وأمجد يهادنها ويسايرها، ويعدها بنسيان كل الماضي إن وافقت على تحديد موعد العرس.

تتوقف سيارة فارهة، تصعد زينة فيها، تومئ لصديقتها بتحية الوداع، ويمتلئ الجو برائحة العطر النافذة لزينة، ولصديقتها التي تصعد أيضاً في سيارة دفع رباعي حديثة وباذخة جداً.

الوجه الآخر للماء

أصوات نعيق مضخات المياه تتسيّد كل الأصوات، مسببة الصمم لكل من حولها وعن كل من حولهم، تنشغل سيدات البيوت بتعبئة كل ما يمكن، زجاجات اشترينها بقيمة 20 ل.س لكل زجاجة، وترامس بلاستيكية، وعبوات نايلون منتهية الصلاحية، طناجر وسطول وكل ما يمكن تعبئته ولو بنقطة واحدة من الماء.

تعجز سناء عن حمل الزجاجات معاً وهي تسابق الريح لتكسب الوقت، فتجمعها في طنجرة كبيرة وتهمّ بنقلها إلى البراد، فتقع الطنجرة وتنكسر الزجاجات، وتصاب سناء بحالة هستيرية تدفعها لترك كل شيء في مكانه، وتتوقف حتى تعبئة المياه بمواعين أخرى.

على أبواب البيوت وعند نقطة تجمّع عدادات المياه، يجتمع الرجال لإغلاق العدادات العائدة لجيران مسافرين أو غائبين، يتلاسن الرجال وتتبادل النساء الشتائم، ويبكي الأطفال وتنهار العجائز، وكلٌّ يتهم الآخر بسرقة مائه.

على الشرفات تتهاوى أكوام من الغسيل غير المجفف على حبال

الغسيل وعلى حديد الشرفات، وتسيل مياه الغسيل مخلفة وراءها رامات من المياه تجعل التنظيف صعباً والسير مستحيلاً.

أصوات ارتطام الصحون برخام أحواض الجلي، وأصوات زاعقة تصرخ من الحمّامات لإغلاق صنبور التواليت تخفيفاً للضغط، ليتمكن أحدهم من استكمال اغتساله.

يهرب الضيوف بمجرد وصول صوت المياه ليتركوا لك الوقت، وليتمكنوا هم من تأمين ما يمكن منه مهما كان شحيحاً وقليلاً.

يشيع خبر تكسّر كل زجاجات المياه في بيت سناء، وبأنها حلفت يميناً عظيماً بأنها لن تعبئ فنجاناً بعد اليوم.

في الصباح كانت تدور من بيت إلى بيت تسامر الجارات وتقوم بإلهائهن عن إنجاز مهمتهن الحساسة بتعبئة المياه، لا قلق في صوتها وغسيلها منشور على الحبال ينعم بأشعة الشمس لتدفأ أوصاله، لم تشتم أحداً ولا عاودت البحث عن زجاجات بديلة.

تساءلت الجارات وعرفن الجواب، لقد اشترى زوجها هرّاباً عظيماً يجمع الماء بوقت قصير فور مجيء المياه، وركّب الزوج مضخة قوية فوق الهرّاب فوراً، لكن سناء واظبت على شراء مياه الفيجة من البائع الدوّار فقط من أجل الطبخ وصنع الشاي والحليب.

طالبت النساء جميعهن أزواجهن بشراء هرّابات كي تتساوين مع سناء، لكن ثمنه غالٍ وتركيبه مخالف والمضخة فوقه خطرة جداً، بدأ الجميع يتناقل خبر الهرّاب همساً، ثم صار الموضوع تنافساً، وبعد ذلك صار موضع تندر واستفهام.

كل الاحتمالات واردة: سرقة، واسطة، دوبلة، مصاحبة، كل التهم كانت واردة، وكل الاستفهامات تجللت بمزيد من الغموض.

حين تتسلل الحرب إلى البيوت عبر أزمة مياهٍ لا جواب شافياً لها ولا

بصيص أمل لحلّها، تصبح حرب المياه جزءاً يومياً من عادات البشر ومن انشغالاتهم، ويتحوّل الجميع إلى متصارعين على حقٍّ هو بالأساس ملكٌ للجميع، لكنه يتحوّل هنا إلى سلاح حرب، ونقطة الماء لا تبشّر إلا بالمعركة. وسناء هناك تؤقت مواعيد زياراتها لجاراتها عند وصول الماء إلى الشبكة فقط، كي تكون شاهدة على تفاصيل الدمار الشامل.

سندويشة جبنة

بيده علبة ألوان خشبية تحتوي على أربعة وعشرين قلماً. يدخل المكتبة، يلقي التحية ويسألني: تشتريها؟ أجيب بلا، فورية، وفي عيني ملامح اتهام.

دونما سؤال يصرّ أمامي على أنها ملكٌ له وبأنه لم يسرقها أبداً، بدا لي غارقاً في مذلة الاتهام، مرتبكاً، حزيناً وفاقداً للحيلة.

استدار ليخرج من الباب، فاستوقفته محاولة توضيح موقفي أو الانسحاب من قسوتي التي فرضتها عليه دونما مبرر، الانسحاب من دائرة الاتهام الغبية التي لم تفسح المجال أمامي حتى للتدقيق في سؤال، أو الاستفهام عن المصدر، أو على الأقل المبرر أو مدى الحاجة التي فرضت عليه ودفعته للقدوم وعرضها للبيع.

استرخت تفاصيل وجهي قليلاً، باعتذار شبه مرواغ سألته عن سبب رغبته ببيعها، لكنه قال: لقد أعطوني هذه العلبة مع دفتر رسم بالمركز وكذلك أعطوا لأخي وأختي، ونحن لا نحتاج إلى كل هذه الألوان.

فاوضته حول رغبته بتبديل علبة الألوان بدفاتر أو أقلام لكنه رفض

بشدة، وفي اللحظة التي شعر بأنه صار محشوراً في الزاوية الضيقة قال: أرغب بشراء سندويش لي ولإخوتي، فأجبته: أنا من ستحضر لك السندويش. وضع علبة الألوان على الطاولة وقال: «بدنا مثلثات، العلبة كم سندويشة بتساوي؟».

أسقط في يدي وأصابني الخرس، جبنة الدنيا حضرت بثوان معدودات، طلب خيارة أو تفاحة حسب المتوفر. وطالبني بسندويشتين اثنتين له ولكل من أخويه.

وضّبت السندويش والخيار والتفاح في كيس صغير، أودعت الكيس بيده وسألته عن اسمه فلم يجب أبداً، سحب الكيس ومشى، صرخت به ليأخذ علبة الألوان المركونة على الطاولة، لكنه رفض بشدة وقال لي: نحن اتفقنا على مبادلتها بالسندويش، سألته إن حاول بيعها لغيري فأجاب: نعم، لكثيرين لكن واحداً منهم فقط أعطاني عشر ليرات فقط ثمنها ظناً منه بأنني سارقها.

تجادلنا كثيراً حول أحقيته في استرداد علبة ألوانه ليرسم ويلوّن، لكنه تركها ومشى، وهو يعدني بالمرور حين يحتاج إلى دفتر أو قلم. ولكنه لم يعد أبداً.

الحرامي

حرامي! حقير! كلب! وصوت صفعةٍ قوية يرتجّ له خد البائع الجالس على كرسي معدني عتيق وبلا مسند للجلوس، وأمامه أكوام من قطع الخردة المستعملة للبيع في سوق شعبي. صفعة أخرى وأخرى والبائع الضخم الجثة لا يتحرك أبداً من مكانه، جالس دونما حركة فقط لتلقي الصفعات والشتائم.

وصل شاب إلى السوق بسيارته، وما إن ترجل منها حتى ركض لاهثاً باتجاه البائع صارخاً به: يا حرامي! يا حقير! يا كلب! كانت المسافة الفاصلة بينهما تتجاوز الأمتار الستة، لكن البائع، الذي بدا واضحاً أنه يعرف الشاب تماماً، لم يفكر بالهرب ولا حتى بتغيير مكانه، أو الوقوف، ليمنع الشاب ضئيل الجسم من إيصال الصفعات إلى وجهه.

حالة من الصمت الحذر سادت السوق ورواده، صرخت امرأة ببناتها: «اركضوا هلق بيطلع السلاح!»، لكنه لم يكن ثمة وجود لأية قطعة سلاح، بات البشر موقنين بأن كل اختلاف، مهما كان سخيفاً وصغيراً، لا بدّ أنه سيتطور لحدود استعمال السلاح، خلاف على ربطة خبز، على ركن سيارة، على الفوز بابتسامة فتاة، كلها أسباب كفيلة بحصول معركة.

لم يتدخل أحد لفضّ الخلاف، والحقيقة أنه لم يكن خلافاً، بدا الحدث وكأنه تنفيذ لعقوبة مبرمة بين الشاب والبائع الذي ثبت في مكانه ولم يتحرك، ولم ينبس بحرف ليتلقى عقوبته. واصل الشاب الضئيل الجسم الشتائم والتخوين والصفعات تتالى من خدٍّ إلى الآخر، لوقت يقارب العشر دقائق وبعدئذ ركض إلى صندوق سيارته وفتحه وصرخ بالبائع قائلاً: «يللا.. عبّي!»، وانشغل البائع بنقل كل ما هو موجود على الرصيف وتعبئته في صندوق السيارة، صامتاً كان، بوجنتين خمريتين رقّ جلدهما، فصارا كالجمر المضيء تنعكس عليهما أشعة شمس منتصف النهار، فتزدادان إشعاعاً.

سأل الشاب البائع: أين المرايا؟ فأجاب البائع المضروب: لقد نسيتها في البيت.

لم تحضر الشرطة إلى المكان، ولم يطلبها أحد أصلاً، كان السوق عالماً خاصاً بالباعة والزبائن، لا طرف ثالثاً، لا أسئلة عن المصدر ولا تقييم للجودة، تعاين فتدفع الثمن، وتمشي، هكذا فرض السوق قانونه الخاص، ومن يبيع ما لا يملكه، مهما كان مصدره، سيواجه العقاب بصمت عميق وبيدين مغلولتين.

اللافت أن الباعة منذ الصفعة الأولى بدؤوا بالانسحاب واحداً تلو الآخر، بعضهم لملم بضائعه ورحل، وبعضهم الآخر وقف جانباً يرقب بعينيه بضاعته وتطورات الحدث.

سيدة كانت تبيع البرادي مع ابنها الصغير هي الوحيدة التي تركت بضاعتها ورحلت راكضة وقبضة يدها تشد على قبضة يد ابنها بطريقة هستيرية.

غادر الشاب صاحب البضاعة المسروقة، وعاد البائع إلى كرسيّه المعدني العتيق الذي بلا مسند للجلوس، شرب ماءً وغسل وجهه، لملم ما

تبقى له أو ما ليس للشاب صاحب البضاعة، وضعها في شرشف سميك، حمله على ظهره ومشى، وكعبا قدميه المخرمشين الخشنين يمسحان أوساخ الرصيف البائس مثله، فقد تعذّر على الشحاطة البلاستيكية الرخيصة أن تحتوي كل هاتين القدمين الضخمتين، كما تعذّر على الرصيف احتواء كل البضاعة بسارقها أو بأصحابها وبزبائنها.

معجون حلاقة/ واقي شمسي

يختلط صوت الماء السائل من الصنبور بصراخ زوجي يطلب مني أنبوباً جديداً من معجون الحلاقة.

بعد أن بحث عنه كثيراً في الرفوف والخزائن، يتعذر علي إيجاد العبوة المطلوبة، أمازحه محاولة كسر وجومه وغضبه: «عادي.. صارت الذقن الطويلة موضة!». يكشر عن أنيابه ويصرخ بي: معجون الأسنان أسوأ الأنواع، ومعجون الحلاقة مفقود والصابون لا رغوة له. يغلق صنبور الماء يلفّ المنشفة العتيقة حول رقبته المتشنجة من شدة الغضب ويخرج.

تغيّرت أولوياتنا، تخلّينا عن أساسيات العيش، عادت النساء لتحضير قصاصات القماش القطنية من الملابس الداخلية المهترئة لاستعمالها بدلاً من المناديل الورقية باهظة الثمن.

يبدو أن أكثر الدعابات فكاهة عاجزة عن إدخال الرضا إلى قلب زوجي، تتكشف قصة القشة التي قصمت ظهر البعير في بيتنا هذا الصباح، ويصير معجون الحلاقة المفقود كالقشة التي قصمت ظهر

صمت زوجي الطويل وطول مداراته للقلة والبطالة والغلاء والشح واحتمال الموت والفقدان.

عادت النسوة لخياطة الحقائب المدرسية من أكياس رز الإعانات، أو أكياس النايلون السميك.

يعاودني الحكاك المؤلم، تتوهج بشرة وجهي، وأعرف أن بثرة جديدة قد ولدت، وأن الأخاديد الحمراء المتهيجة تحفر عميقاً في وجهي، وفي كل مرةٍ أذهب لشراء الواقي الشمسي ومضاد التحسس أتراجع عن قراري، في كل سؤال ازدياد في السعر ومنية بالغة بأن الصنف متوفر بالحدود الدنيا.

اتفق ولداي الشابان على المداورة بالخروج من المنزل لأن حذاء ابني الكبير يسرّب الماء، والمطر وفير هذا العام، تخيّلوا أننا بتنا نكره المطر، يتبادل ولديّ الحذاء الصالح الوحيد للذهاب إلى الجامعة، وأقلص استهلاك اللحم الأحمر لدرجة بالغة، بتنا نضع اللحم بالملعقة الواحدة لتنكيه الطبخة ليس غير.

يسألني زوجي عن جوارب نظيفة ودافئة، أتلعثم لأن صدعاً جديداً سيساهم في هدم زيف ادعائنا بأننا بخير، أحاول اللعب على الكلمات، وأستبق اللا النافية لوجود جوارب بطلب مبلغ صغير لشراء عبوة واقٍ شمسي متذرعة بالحكاك وبالبثور وبالبقع السوداء، محاولة بثّ الدعابة السخيفة ذاتها بأن الذقن الطويلة باتت موضة وحلّة رائجة ومباركة أيضاً.

صرخ من عمق مرارته: والبقع والبثور والحكاك والجنان والانهيار العصبي.. كلها موضة وحال رائجة أيضاً.

هستيريا النجاة

أتربةٌ وبحصٌ وذرات زجاج ورملٍ تغزو فمها المذهول، ووجهها الملتصق بالأرض لا يعي أية جهةٍ سيحمي.

صوتٌ فائق الصدى، مروع وقريب جداً، لكنه مجهول الهوية. انبطحت بشدة ملتزمةً ببعض التعليمات التي سمعتها وقرأت عنها، من أجل تأمين قسطٍ من السلامة وتخفيف الأضرار.

فكرت بأن تضع رأسها فوق حقيبتها لحمايته من الارتجاج، لكن حقيبتها كانت قد ولّت وطارت مع الصدى.

أغمضت عينيها، ألصقت رأسها بالأرض واستسلمت للنوم.

ما كان يعبر أمامها هو مجرد ظلالٍ لهياكل بشرية، أصواتٌ تزعق وأقدامٌ تهوي، لسع شظايا بالحجارة والتراب يحرق وجهها، هدأ المكان، توقف الهمس، لا شيء يحدث الآن. صمتٌ كصمت القبور وصدى لفراغ لا حدود له.

فتحت عينيها، فرأت نساء تهرعن نحو الأمام مندفعات باتجاه صوتٍ أو ملمح لقريبٍ أو حبيب يعرفنه جيداً، والرجال يتجاوزون لهفة السؤال

ويركضون، حفاة، عراة بقمصانهم الداخلية الرقيقة، يقصدون أبناءهم الذين صاروا بلا لون، وإن توفر اللون فقد استحال الشعر الأسود إلى أشيب بفعل التراب وغبار الإسمنت، وجوه اكتست كلها باللون الأصفر الباهت، بلا ظلٍّ ولا هوية، أصوات أطفال تصرخ: «بدي أمي»، «بدي بابا»، «بدي أشرب»، «بدي روح عالبيت»، أخوان قابعان في حفرة عميقة يبكيان بصوت عالٍ والبنت تحاول الخروج أو حمل أخيها لدفعه خارجاً، وتبوء محاولاتها بالفشل الذريع، فيبكيان من جديد.

أبٌ بقدمين حافييتن، يركض غير عابئ بالبحص وشظايا الزجاج التي تخترق قدميه، يبحث عن ابنه الذي خرج غاضباً من أبيه حين رفض إيصاله إلى المدرسة على الدراجة الهوائية، كان يصرخ باسمه مهلوساً فاقداً لأي أملٍ بالعثور عليه حياً.

امرأة تتقدم بهدوء من الطلاب، كان جليّاً بأنها لا تعرفهم ولا تمت إليهم بصلة، حادثتهم، هدّأت من روعهم، وتساعدت مع اثنين منهم على إخراج الأخوين من حفرتهما العميقة وبعدئذ طلبت من الجميع الانتقال إلى الرصيف المقابل، كانت تملك هدوءاً ملائكياً وسعة صدر لا حدود لها.

انحنت فوق رأسي وسألتني: هل أنت مصابة؟ أواعية أنت؟ اطمأننت إلى صوتها، نفضت عني ما قدرت على نفضه من غبار وشظايا وتراب وبحص وزجاج، ساعدتني على الجلوس بعيدة عن مكان سقوط القذيفة، هنأتني بالسلامة بودٍّ منقطع النظير وقالت لي: مرّت بسلام، ستتذكرينها طوال عمرك.

الفوضى تعمّ المكان والبشر غارقون بدموعهم وسوائل أجسادهم، بخوفهم وبلهفة السؤال وإصرار الاطمئنان.

كنا جميعاً في عين الإعصار والعين تضيق وتتوسع كحدقة الطفل،

وصلت الأمهات، صوت الأمومة نادى كل واحدة منهن باتجاه ولدها. كلهن يرددن كلمة واحدة: «ولادي!». توقف السير والبشر جامدون كالصخور الصماء غير قادرين على التحرك أو المساعدة. نادت طفلة باسم أمها فركضت مئة أم، أمطرت السماء قبلاتٍ ودموعاً، وتمتمت الألسن بالأدعية والشتائم والأمنيات.

على لوحة معدنية كانت حقيبتي معلقة، ورنين جوالي يعلو كلما اقتربت. ساعدني شاب للحصول عليه بتحريك عصا طويلة ليسقط وآخذه.

حمى الاتصالات تملأ الأرجاء، مين؟ كيف؟ وين؟ كلها أسئلة مكررة كان الجميع مصرّاً على ترددها.

تقبض الأمهات على أيادي أبنائهن، يقودونهم نحو حافة الأمان أو هكذا تظنن، وأيادي الأطفال تبحث عن الرفاق، عن الحقائب وعن وجه المعلمة لإلقاء تحية أو إشارة.

هستيريا النجاة كما هستيريا الفناء، موغلتان في بهيمية الوجود وعدمه. وعلى الطريق ذاته كان ثمة من لم يلاق ابنه بعد، وأبناء ينتظرون آباء لن يأتوا سريعاً، فزحمة الأخبار القاتلة لا تصدق بعناوين الأحبة.

اليوم عرس زوجها

ستتقبل النساء مرغماتٍ نقص الرجال، الخضّات الكبرى تترك بصمات جراحها محفورة في قلوب الجميع.

اليوم عرس زوجها، تركت البيت وذهبت إلى بيت خالها، فأهلها بعيدون جداً وإخوتها في مهب الغياب.

العروس أكبر من زوجها بعشر أعوام، عرضت عليه الزواج وهي تعرف أنه زوج وأب. لكن عرضها كان مربكاً وغريباً، أوقع الزوج في حيرة غريبة وتردد عميق، فقد عرضت عليه السكن معه ومع عائلته في بيتها الواسع الذي تملكه، وأردفت: أنا لن أنجب بعد الآن، وأشتهي الأمومة، وأولادك دخلوا قلبي فوراً.

هو يعرفها جيداً لأنها ابنة خال أمه، ويعرف طيبتها وصدقها البالغين، ومنذ شهرين وهو يقطن وعائلته معها في بيتها، منذ تركه لبيت أهله، بسبب شجارات طويلة ومتكررة مع الزوجات والأبناء بعد أن صار سكان بيت أهله عشرين شخصاً.

ارتبطت مع زوجته بعلاقة طيبة، لكن هذه العلاقة أصابها شرخ عميق

بعد انتقاله مع عائلته إلى بيت العروس الجديدة، حدس المرأة تغلّب على فرحتها ببيت واسع ومريح، منذ اللحظة الأولى قالت لزوجها: أنا خائفة جداً من هذه المرأة! وأكّدت أن هذه العيشة هنا لن تنتهي على خير.

شهران كاملان وسعاد تلاحق وسام بكل الوسائل: شكوى متصلة عن الوحدة، إبراز المفاتن في الطبخ والتوفير والترتيب، حنان بالغ اتجاه الأطفال. وفي نهاية المآل انفردت به ذات صباح وطلبت منه الزواج، هكذا «من الباب للطاقة» كما يقولون، و«دون إحم أو دستور». قالت له: تزوجني! وخرجت من الغرفة.

لاحقاً حاصرته بعروضها المغرية، سأكتب نصف البيت باسم الأولاد، سأمنحك كل مدخراتي لتباشر مشروع عمل جديد بعد ثلاث سنوات من البطالة الموجعة والمهينة. أنا سأتولى أمور الطبخ والتنظيف، سأحترم زوجتك وأهلها. سأراعي مشاعرها ووو.

حصارٌ جامعٌ وشامل، منطقي لدرجة أنها لم تترك ولا باباً موارباً واحداً، كالريح فتحت أمامه كل أبواب العيش المشترك وعرضت عليه حلولاً مناسبة لها.

أعلن أمامها بأنه لا يحبها وأنها بنظره خالة وحسب، رغم فارق السنوات العشر من عمريهما. أخبر زوجته بالموضوع فوراً محاولاً بثّه أمامها كدعابة أو كواجب، لكن الدموع نفرت من عينيها وأيقنت أن هذا الزواج حاصلٌ لا محالة.

في اليوم الثاني شدّت رحالها إلى بيت خالها، وفي اليوم الثالث بدأت بالبحث عن عمل في البيوت، وفي اليوم الرابع اتصلت به وأعلمته برغبتها في الطلاق وبقرارها منحه الوصاية على الطفلين الصغيرين.

لم يكن الزواج بامرأة ثانية في أي يوم من الأيام حلاً أو ضرورة، كانت وما زالت ترفض التشارك مع امرأة أخرى تحت أي مسمىً كان.

لن تسمح للحرب وللبطالة والتشريد والنزوح والفقر بتجريدها من حقها في زوج لها وحسب. حاول الكثيرون الضغط عليها تحت ذريعة الظرف القاهر، وتحت ذريعة أنها الأضعف، والأضعف هو من لا يملك المقدرة على قول كلمة لا.

لكنها قالت اللا، وتمسكت بها.

ستتقبّل النساء مرغمات نقص الرجال، كما سيتقبل الرجال تعدد الزوجات، وفي الحالتين ستكون النتائج سواء. خضّاتٌ كبرى تطبع القلوب بجراحها الموجعة في شحها وفي فائضها.

قالت الحرب

أصوات الشتائم والشجار، تصل إلى أسماع الجيران، لم يتدخل أحدٌ لفضّ النزاع اليومي وشبه الأزلي بين الجارين في الطابق الأول، شجارٌ على تنظيف الدرج، وعلى أصوات الأولاد المزعجة، وعلى هباب المدفأة الذي يدخل بيت الجيران المحرومين من الدفء لعدم توفر المازوت عندهم.

أم محمود تشرح للجارات أن سبب الشجار وشتائم أم كمال هو ضيقة عينها وغيرتها من حالتها الميسورة.

وأم كمال تعلّق: «الذين استحوا ماتوا»، وتضيف «إذا ابتليتم بالمعاصي فاستتروا»، وهي تقصد أكوام العظام المرمية على الأرض بعد أن نبشتها القطط من أكياسها وتوفر اللحم بشكل يومي عدا أنواع الخضار والفاكهة كافة.

شهور طويلة وأم كمال لا عمل لها إلا مراقبة الطعام الداخل بوفرة عظيمة والبقايا وأكياس النفايات الخارجة. وتقول: في الحرب تعجز البشر حتى عن ملء كيسٍ واحدٍ من القمامة، فكيف ومن وأين يتسنى لأم

محمود صفّ كل هذه الكمية المهولة من أكياس القمامة أمام باب بيتها لقلع عيوننا ضيقاً وحسداً وكمداً.

صناديق كرتونية فارغة، صناديق بيض، صناديق بلاستيكية كانت معبأة بالفواكه، أكياس الخيش والبلاستيك المرسوم عليها البطاطا والبرتقال، وفوق هذا كله أكياس الخبز السياحي ورائحة الدسم المنتشرة في كل الأرجاء.

صارت الوفرة مدعاة للتساؤل والغيرة والحيرة، وتحوّل التناقض بين حالٍ وسواه إلى انقلاب بنمط العيش واللباس والتعاطي مع الأهل والجيران ومع الذات أيضاً.

قال العرب بأنك تتعرف إلى بيوت الكرام من نارهم الموقدة دوماً لإطعام الضيف، وتقول الحرب بأنك تتعرف إلى بيوت أهل الحرب وأصحابها من أكياس قمامتهم الوفيرة والممتلئة حتى التخمة زفراً وحلوى وزيتاً ولباساً. ومن روائح التخمة النافذة من بيوتهم، ومن وجوههم المتلبدة.

زردة تنك

على حافة الجوع صاروا، كره الأبناء المعكرونة والأرز الحافل والبرغل جالب الغصات، تقول رشا لأمها: متى سنأكل ما نشتهي وليس على مزاج كرتونة الإعانة؟ تفرح رشا عندما تلطم أمها وجهها معلنةً انتهاء مكونات كرتونة الإعانة لأن لذلك معنىً واحد وهو طبخة على مزاج الأبناء، طبخة على مزاج رشا وإخوتها، وغالباً ما تفوز البطاطا المقلية بزيت الإعانة في السباق الذي تجريه الأم الذي يخيّر الأبناء بين البطاطا المقلية أو الكواج أو الخبيزة.

أثناء زيارتها للمستوصف لعلاج ولديها المحمومين، أعلمتها الطبيبة بأن طفليها على حافة الإصابة بنقص النمو، بسبب سوء التغذية.

أصرّت الطبيبة كثيراً على اللحوم بكل أنواعها وألوانها. وحذّرتها من نتائج النقص المستمر للحوم في وجبات الطعام، محددةً كمية 40 غرام يومياً كحدٍّ أدنى لكل طفل.

فور خروجها من المستوصف اتجهت أم رشا إلى دكان الصاغة، باعت محبسها الرقيق واتجهت نحو السوبر ماركت، اشترت للولدين

كيسين كبيرين من الحليب المجفف مع علبتين جبن دسم وكيسين من الكعك.

ومن ثم اتجهت إلى اللحام واشترت ثلاثة كيلو غرامات من لحم العجل، طلبت من البائع تقسيم كل كيلو إلى خمسة أقسام، وفي البيت قسمت كل كيس إلى أربعة فصار لديها 60 كيساً من اللحم بوزن 50 غرام لكل كيس.

وبعد انتهائها من تحضير الطبخة اليومية، كانت تخرج كيس اللحمة وتحضّره وتبقيه جانباً لتضيفه مقسوماً إلى حصتين، تضيف حصة منهما في طبق كل ولد، مخالفة بذلك تعليمات الطبيبة، ذلك أنها قلصت الحد الأدنى من اللحم إلى النصف. تبخّر ثمن المحبس مع أنها كانت تتمنى لو تبقى لها منه ولو ثمن زردة من تنك تشكلها في إصبعها الفارغ.

الفخذ المقدّس

إنها الساعة السادسة والربع صباحاً، تلفّ العتمة تفاصيل المكان، وأجساد الناس الواقفة بتثاقلٍ وتهالك على موقف الباص تبدو كظلالٍ غامضة. في كل يوم أقرر أن أخرج في الغد قبل ربع ساعة إضافية، لكن الانتظار يطول ويطول رغم كل الوقت المضاف إلى حصة الهاجس بتأمين واسطة نقل تقلّني إلى عملي.

يقلُّ وقت النوم، ووقت القهوة ووقت اللباس وتحضير الزوادة، كل دقيقة بحساب، وكل تأخيرٍ مشقّة، يخيفني الازدحام ويرعبني منظر البشر المتدفقين كالغبار والواصلين قبلي، تنمو في داخلي فوراً بذرة الخصومة اتجاههم، كلهم منافسون شرسون لي، كلهم سارقون ومعتدون على فرصتي بالركوب والوصول.

تقلص عدد الحافلات بسبب نقص المازوت وارتفاع سعره في السوق السوداء، وبسبب كثرة المخالفات والرُشى، إضافة إلى خروج عددٍ كبير منها من الخدمة بسبب إصابتها أو اهتلاكها، أو تحت ذريعة الإصلاح، والإصلاح تتبعه مشكلة عدم توفر القطع اللازمة وإن توفرت فأسعارها مرعبة وتعيق الإصلاح برمته.

أترقب وصول أي واسطة نقل، أراقب الطريق وخطوات الواقفين وانفعالات وجوههم، إن تحرك أحدهم يتبعه الجميع، تعمُّ غريزة القطيع ويركض الجميع خلف سرابٍ أو خرابٍ لا فرق، لمجرد أن أحدهم قد ركض... تتنامى غريزة المنافسة الشرسة، أدفع مَن حولي ومَن حولي يدفعني أيضاً، ضربة بكوع أحدهم أو دهسة على قدمك كفيلة برميك على الأرض معلّقاً بين الحياة والموت، معلّقاً بين الفوز بمقعد أو بمجرد موطئ قدم أو بخسارتهما معاً، وتعود للانتظار حتى اللانهاية.

تتهادى الحافلة الآسرة، يختلط الحابل بالنابل، تمتلئ المقاعد أربعة أربعة بدلاً من راكبين اثنين في كل مقعد، أصرُّ على الصعود، أسند ظهري إلى الباب المعدني الأجرب، وفي الحقيقة إنني من يسند الباب بظهره.

ترتجّ الحافلة المتهالكة تحت نير الحفر الوفيرة والعميقة، يرتجّ الزجاج ومفاصل الركاب وأسنانهم، أحاول التثبّت مخافة الوقوع، أضع يدي على الحافة ظانةً أنها حافة المقعد، يصرخ صوت ذكوري مهدداً متعوّذاً بالشيطان الرجيم، صارخاً في وجهي وهو يقبض على يدي المتأرجحة بوحشية ناقمة، ثم يرمي بها في الهواء، لأكتشف أن ما ركنت إليه وتثبتُّ به كان فخذه العظيم والمقدس والمبجّل، وقبل كل شيء المحرّم بصورة قطعية، حتى وإن كان للحماية في لحظة سقوط مؤلمٍ وفاضحٍ ومحتّم.

أغرق في عرق الخجل العظيم، أكظم غيظي وأطبق على أسناني بقسوة بالغة، أصل إلى حدود الاختناق، أسند يدي الجريحة المكلومة إلى جسدي، أبتلع مذلةً، وأشتهي نسمة هواء عليل أو صرخة في وجه ذاك التافه الأجرب.

الحافلةُ مسكونةٌ بعشرين راكباً، بأربعين ساقاً وبأربعين ذراعاً، نتصبب عرقاً في عزّ الشتاء، نختنق بحمّى القرف، نترنّح ونشعر

بالاختناق، لكننا نبقى صامتين، هذا هو أهم ما تعلّمناه، بلاغة الصمت ليصل بنا إلى بلاغة الاحتقار حتى لذواتنا. أصل إلى وجهتي، أصابع قدمي يدبّ فيها النّمال وتلسعني كالبعوض السام.

أحاكي يدي المتهمة بالفجور، أعاتبها؟ أم أضحك منها ومن دناءتها حتى تجرّأت واختارت ذاك الفخذ المقدس ملاذاً آثماً لها؟

رئتاي تنزّان صفيراً كالمختنق بزبد البحر على ضفةٍ غادرة، أكره الطريق والمواصلات والعمل والتسوق والزيارات ومواعيد طبيب الأسنان. أتنسّم الهواء الممتلئ بالبارود وبهباب مدافئ الحطب ومواقد الأوراق والكرتون والأحذية البلاستيكية، يغمرني برد ثلجيّ، أسير بلا هدىً بعد ظنٍّ مواربٍ وعقيم بأني وصلت.

ساعات قليلة وسيبتلعني الطريق من جديد ويرميني لقمة سائغة ومعلوكة في بطن حافلةٍ أسوأ من سابقتها، سيبتلعني جوف الحوت المتوحش ويلفظني مجدداً على طريق العودة إلى بيتي، لأسلك سكّة الوحشة الطاغية كل صباحٍ، وأضحك ملء رئتيّ المتورمتين وأنا أحاول استعادة وجه الصباح...

الغريبة

علبتا فول معدنيتان، عبوة من الطحينة وعلبة حلاوة صغيرة، كانت حصتها من التسوق اليوم، فمنذ أن انتقلت إلى شقتها الجديدة التي وهبها إياها ابن عمتها المسافر إلى البرازيل منذ ثلاثة عقود وهي ترتاد السوق يومياً، لتكمل مهمة شراء محتويات القائمة الاسمية الطويلة التي سجّلتها على ورقة ملازمة لها ليلاً نهاراً، تقرؤها كل صباح وتعيد مراجعتها كل مساء لتتأكد وتشطب على كل ما أتمّت شراءه.

لم يكن هدف التسوق سد الحاجة لتخزين الأطعمة أو طمعاً في حلاوة التهامها يوماً بيوم، بل كانت تأمل من ذلك أن تأنس إلى بيتها وتتقبّل وجودها فيه.

سنة كاملة وهي تتنقل من بيتٍ إلى آخر، شهر في بيت أخيها، وثانٍ في بيت أختها، وشهران مع والدتها الطاعنة في السن لتمريضها بعد أن كُسر رسغها الأيمن، والتي كانت ترفض مشاركة أحدٍ لها في منزلها، إلا أن اضطرارها لخدمات ابنتها أجبرها على تقبّل العيش معها لفترة محددة ومؤقتة.

كلما تقبّلت المكان الجديد وبدأت بالتعوّد على تفاصيل الحياة

فيه وعلى التعامل مع هذه التفاصيل وكأنها تخصها وتشبهها، تكالبت الظروف عليها لتحتّم خروجاً سريعاً وانتقالاً مؤلماً إلى بيت آخر.

في كل مكان جديد، كانت المقارنة تأخذ الحيّز الأكبر في كلامها وتفكيرها، تقارن بين ملاعق الطعام هناك في جنّتها الساحرة والملاعق هنا المعجونة بطعم المعدن المتأكسد، تقارن بين سطوع الشمس الآخاذ على شرفتها الوادعة والعتم الداكن الذي يملأ تفاصيل المكان والعيش.

لون دهان الجدران، عصارة الليمون، موسيقا جرس الباب الخارجي، صنبور ماء الاستحمام، رائحة مدخل البناء والسكان، كلها مجازات لحزنٍ يقيم ويقيم، كلها مؤجّجات لشوق لا يبرد ولحنين يتوهج.

في كل تسوّقٍ كانت تتحايل على نفسها موهمة إياها بأنها وإن أحبت المادة الجديدة المشتراة بشغف فلا بدّ أنها ستحب مكانها ومآلها الجديد. توهمت بأنها ستتقبل وجودها هي كما تقبلت وجود الأغراض بين ثنايا السكن الجديد.

بمجرد وصولها إلى البيت الجديد، شرّعت أبوابه ونوافذه للشمس والهواء بإصرار عجيب على أن تغادره روائح كل من مرّوا فيه، وأن تتسيّده رائحتها وحدها.

نظّفت الجدران والأرضيات، وضّبت كل ملابس أهل البيت في حقائب ووضعتها في أسفل الخزائن، لم ترمِ قطعة واحدة منها، كانت حريصة على إلقاء ذكريات المكان مخبأة في أعماق المسكن مخافة النسيان.

ارتبطت بالمكان بمتاعها الذي جلبته قطعة قطعة، شرشف ملون بورود كبيرة، غطاء صوفيّ متعرج الخطوط ومتنافر الألوان، أحواض زريعة عديدة، أدوات الطبخ والاستحمام، ورويداً رويداً انتمت إلى سكنها الجديد، لكنها كانت تمر بلحظات اغتراب، بدفعات من الشوق والحنين إلى بيتها هناك الذي لا تعلم عن حاله شيئاً.

ومع الوقت، ورغم كل الاعتياد القسري، كانت تلج إلى حالات من الحزن العميق، تضيع معها كل النكهات الطارئة لسعادة مزيفة.

حالما دخلت البيت، رتّبت مشتريات اليوم على الرفوف الموحشة، غمرتها الغربة وركنت إلى فراغ كبير يضجّ في رأسها.

لم تعد تحتمل كل هذا الغياب، جمعت كل ما اشترته منذ اللحظة الأولى لدخولها إلى هذا المنزل، وألصقت عليها لصاقات مدوّناً عليها اسمها الكامل وعنوان بيتها الأصلي، منحت المكان وتفاصيله عنوان بيت وتفاصيل باتت بحكم الغياب، التحفت بغطائها الصوفي المتنافر الألوان، استدرجت كل الصور العالقة في مخيّلة الانتماء حيث تحب وتشتهي، ونامت، واللصاقات المخادعة يسّرت لها درباً من أحلامٍ مخادعةٍ ومراوغة، وكأنها لمّا تزل هناك، عالقة ما بين ذاكرة ونسيان، غارقة في خديعة لا تصلح إلا لمزيد من التوهان.

غريبة كانت في إهاب أحلام أليفة ومُحبة، تائهة في دروب شوقٍ لا شفاء منه إلا بالرجوع إلى هناك. وهي التائهة بين هنا وهناك تمنح نفسها فرصة للعبور من ضياع إلى اغتراب.

عشرة عمر

أنا الابنة الثالثة، مصيبة وقعت على رؤوس أفراد العائلة جميعاً، لم تفلح أمي بجلب وريث ذكر يحمل اسم العائلة، والدي وحيد أبويه، وله ثماني شقيقات تزوّجن جميعاً ورحلن عن القرية مع أزواجهن الغرباء.

سمراء بلون الليل جئت جالبة عتمتي معي، ثقل حمل أمي وكبر همّها، ومنحوني من ساعة ولادتي لقب النَوَرية نسبة إلى النَوَر الذين كانوا يسكنون أطراف قريتنا ويقضون الصيف وأول الخريف بطوله. كبرت وكان نسبي القسري المشبع تمييزاً وعنفاً قد خلف لدي ميلاً عفوياً تجاه النَوَر الزوّار داكني البشرة مثل الليل ومثلي.

أهرب من أهلي لأزور خيامهم، أتوه عن أخواتي ورفاق اللعب، لأدخل تلك الخيام ولأعبث بالطبول الرنانة المتروكة هناك للمّ الرزق وصدح الموسيقا.

أرتمي على فرشهم الرقيقة والمخاطة بعناية وشدة، بيوتها القماشية ملونة بكل ألوان الأرض، مزق من الأقمشة تصير غطاءً حامياً وجامعاً، وتصير لوحة لونية فائقة التكوين.

أتلذذ بالتهام طعامهم المطهو بقدور معدنية مسودّة من نار الحطب، خليط عجيب مقلّى بسمن حيواني منزلي الصنع، وأشبع من سواد قدورهم ومن زادهم ومن نار أحطابهم المتقدة أبداً.

استوطن النَوَر الأحياء المتطرفة من المدينة، ولكنهم حافظوا على تجمّعهم معاً، وبات مكان اجتماعهم وسكنهم يحمل اسم حارة النَوَر، وجاءت الحرب، وهُجّروا بعيداً عن مضاربهم، هُجّروا معاً كما سكنوها معاً. لم تكن بيوتهم مساكن بقدر ما كانت مضاربهم ذاتها، خيامهم، لكن من إسمنت وباطون وشبابيك وأبواب معدنية تبقى مفتوحة دوماً، فلا قدرة ولا إمكانية لعيش النَوَر داخل الأبواب المغلقة والثابتة.

رَحلوا أو رُحّلوا لا فرق، لكنهم لم يتركوا فرشهم الملونة الرقيقة ولا طبولهم الصادحة ولا قدورهم الخيّرة، فجأة وجدتهم على الرصيف في وسط المدينة، أعرفهم، فهم أهلي، أميّز روائحهم، وخيامهم هي ذاتها تشبههم وحدهم، تتمايز عن خيام غيرهم، فتكوينها متأصلٌ في وجدانهم وبصيرتهم وأبصارهم، للخيمة بابٌ مؤطر وشكلها مربع أو مستطيل دوماً، لا تُشدّ بحبال وإنما ترتكز على أعمدة خشبية أو معدنية، سمعت دقات طبولهم ورائحة سمن الماعز العابق في تلافيف ذاكرة التذوق لديّ، كانوا على الرصيف يتشمّسون، أطفالهم حفاة، يتصايحون ويصرخون ويعترضون سبيل المارّة لقراءة طوالعهم وكفوفهم، لم يتغيّروا أبداً، ولم تتدمل بداخلي حكاية تغريبي عن أهلي وأختيّ الشقراوين.

غادرت الباص ونزلت إليهم، لم يعرفوني طبعاً، ولكني تمشّيت بينهم، دققت في عيونهم المستديرة اللامعة، تبعت انعكاس خطوط الشمس اللامعة على شعورهم المخضبة بالحناء، تمنيت لو يتعرف أحدهم إلي، أن يُطفئ أحدهم شعلة الغربة المضاءة في عتمة روحي.

خيامهم وطن وذاكرة، وقدورهم شبع وطمأنينة، غادرت خجلة من

ضعفي الذي منعني من تعريفهم بنفسي أنا البنت الموسومة بلونهم كالوشم، أنا الطفلة المحاصرة برغبات العوائل في إنجاب الذكور فقط أو البنات الحسناوات بيضاً وشقراوات، المرغوبات في سوق الإعلانات وفي المخادع وصالات الاستقبال.

غادرتهم كمن يرحل مضطراً نحو غربة جديدة وطويلة، أمشي وأتطلع خلفي، علّ أحدهم يدعوني لدخول الخيمة، لتلمّس الفراش الملون الرقيق، علّ أحدهم يقرع طبله وتصدح موسيقا الحياة، ويبدأ العرس ويرجّع الصدى كلمة «شابوش»، وينهمر نقوط العروسين، ويدور الزمن وتدور الحكاية وينهمر الخير.

كانوا منشغلين عني، يرتّبون مكانهم الجديد، يرتّبون عزلتهم الطارئة، فقد حلّوا بين أبنية عالية وسيارات لا تعدّ ولا تحصى ووجوه غريبة ومستعلية.

يقايضون باعة الخضار بقراءة الكف لمنحهم بعضاً من غلالهم، والنساء كانت تشدّ حبالاً بلاستيكية لنشر الغسيل المبتلّ جداً، وتغسل الصغار في أوعية بلاستيكية كبيرة من خزّان كبير وقريب.

بعد أسبوع عاودت زيارتهم، أطلت السير بين خيامهم، طلبت من نسائهم قراءة كفّي وطالعي علهنّ يتعرّفن إلى نسبي وانتمائي إليهم. كانوا يقصّون عليّ وبميكانيكية فجّة قصة رحيلهم ذات ليل، لم يفعلوا شيئاً ولم ينطقوا بحرف، جمعوا فرشهم وقدورهم وطبولهم وملابسهم وتركوا الأبواب والنوافذ مفتوحة ورحلوا، ووصلوا إلى هنا، أهي وجهتهم الأخيرة؟ أم بوابة لرحيل جديد؟ لا أحد يعرف أبداً.

كانوا غرباء مثلي رغماً عنهم هذه المرة، لم يختاروا الزمان ولا المكان، خرجوا في عز الشتاء وارتموا على أقرب رصيف، كالأخيلة الغريبة كانوا، وكالخيول الصاهلة في غير أرضها بلا صاحب ولا مأوى.

ذات مرة غفوت على فراشهم، بحث عني أهلي وكل أهل القرية، بكت أمي من الفضيحة، ولعن أبي حظه بابنته المتيّمة بحب الغرباء النَوَر لدرجة أنها تغفو بينهم وعلى فراشهم، هجم أبي عليهم مهدداً لهم بالويل والعقاب إن طلع الفجر ولم يرحلوا، وسانده كل أهل القرية، فقد كنت إنذاراً مرعباً لطمأنينة شرفهم المصان، ومصدر تلويث لسمعتهم المتوحشة والمقيّدة والموغلة في عنجهيتهم.

وأنا أشرد في البعيد هزت أركاني كلمة قالتها لي قارئة الكف: «أنت من وين ياحلوة؟!»، وأردفت: «فيك شرّش نَوَري يا نور عيني!».

أخيراً تعرّف أهلي إليّ، يا أرض اغمريني بأفراحك! ويا سماء ضميني إلى أنوارك!

كما رحلوا على مضض ذات خريف بضغط من أبي ورجال القرية، رحلوا من هنا أيضاً بعد أن استهجن سكان الأبراج العالية بقاءهم بينهم، ادّعوا أنهم بلا شرف وأن نساءهم بغايا، واتهموا أبناءهم بالسرقة، ورجالهم بالنصب والاحتيال.

عدت إليهم ولم أجدهم، وباعة الخضار كنسوا كل آثارهم، حتى حفرات تثبيت أوتاد الخيام طمروها بالتراب، ومدّدوا أماكن بسطاتهم، واستولوا على الرصيف الذي كان مسكن أهلي وجلّاب الفرح لروحي وقلبي.

لم يدلّني أحد إلى مكان هجرتهم الجديدة، عرفت أنهم كالعادة رحلوا ليلاً قبل بزوغ نور الصباح، رحلوا إلى وجهة جديدة سيطردهم منها همجٌ جدد، همجٌ لا يحبون الألوان ولا الليل وسمرته، ولا البنات الإناث ولا صدح الطبول والأعراس والشابوش وقراءة الأكف للبحث عن شرش يجمع الغريب بالغريب ويوحّد لغة الفرح والعيش.

يرحلون ليلاً، قبل سطوع الشمس، كي لا يكشف ضوءها مرارة

التمييز الكامن من دهور على ألوان وجوههم وعلامات النخر الحادة على أسنانهم، ولا غربة فرشهم وألوانها عن نمط الفرش الحديث المنمق والموجع، وفي كل رحيل يتركون الأبواب والنوافذ مفتوحة، لا للقاطنين أو العابرين الجدد، بل لهم، علّ الحكايا تدلّ عليهم بلا استئذان، ولعلّ الذاكرة تبقى مشرّعة على التذكر والعيش...

هم أهلي، وبيني وبينهم لون الليل ونومات هنيئة، وشبع، وفرح، وصهيل خيول، وطبول تصدح، ربّة العرس المنذور للتمييز والغربة والرحيل أنا، وهم يصهلون بالشابوش ليدور العرس وتنهمر الأعطيات، وتحبل النساء وتنجب الذكور والإناث.

في كل ولادة أنثى كانت تندلع حرب تحرق أجواف الأمهات، فتتمنين لأرحامهن الذكور أو العقم. وكنت أنا وأهلي النَوَر هناك شهوداً على حروب تدور في المخادع وفي الأرحام وعلى الأرصفة وفي قلب الخيام، حروب تدور بين سكان الأبراج العالية وقرّاء الأكف والطوالع، وأنا أعيش على الهوامش منتظرة بكل الأمل أن تثبت قارئة كفي نسبي إليهم، نسبي إلى حرية من أكون وكيف أكون، متى أرحل، ومتى أستقر، ومتى ألوذ ببعيد هو القريب الأقرب.

سمراء بلون الليل أنا، والعرافة قالت: «فيك شرّش نَوَري يا نور العين!»، وأنا صدّقتها وما زلت أنتظر عودتها على أجنحة رحيل جديد.

على شفا افتراق

في لحظة واحدة من زمان كنت تظنه عادلاً، يغمرك الذل وتنقلب أحوالك، فقد قرر زوجي أن يوزع أملاكه في حياته، بدلاً من أن يتركها للقسمة الشرعية، فجأة أكتشف أنني لست أماً لأبنائه، وأنني زوجة ثانية وحسب، ويكفيني القليل، القليل!!

ميراث اشتراطيّ، يلزمني كي أحصل عليه بالتنازل لأحد أحفاده، عن البيت الصغير الذي سيشتريه لي، كي لا تضيع ثروته في أحضان إخوتي وأبنائهم. فجأة، تناسى عقوق أبنائه وطغت العقلية العشائرية والنسب والعرق الدساس الذي يحرّم عليّ ملكاً لا أستحقه حسب خرافاتهم وأحكامهم الموغلة في الجهل والاستعباد والاستبعاد.

حين تزوّجته بعد وفاة زوجته لم أشترط كتابة ملكية ما باسمي، لأنه قال: مثلك مثل أولادي، سترثون حسب القسمة الشرعية، واطمأننت وصمتّ، لكنه قرر أن يغتال طمأنينتي في مهدها ويزيد من عجزي وقلة حيلتي، بعد أن تركت عملي وتفرّغت لخدمته فهو ثمانيني ومريض.

في كل ساعة يُسمعني مواعظ لا قيمة ولا نكهة لها، أولادي أحقّ بملك

أبيهم، حق الانتفاع يكفيك ويؤمّن لك سكناً كريماً، في كل شهر أمنحك «خرجية» توفّرين منها، وما صار بحوزتك يكفيك لسنين...

حاولت تمالك أعصابي وشرح موقفي دون تجريح أو اتهامات له، وأن البيت وملكيته هي حقي الطبيعي، لا بل أبسط حقوقي، وأن هذا البيت هو سندي إن مرضت أو تخلى عني الجميع، لكن لا نتيجة، أخبرته أنه لو ترك القسمة على أساس الشرع رغم انحيازه للذكور فإنني سأحصل على أضعاف هذا البيت المهتزّ الأركان قبل شرائه وبنائه، وقبل أن يسجّل باسمي، أو يسمح لي بالانتفاع منه طيلة حياتي المعذبة.

عبثاً. يزداد عناده ويكرر أسطوانة الشيطان بأنه ماله، وأن إخوتي لا يستحقون وراثته، حينئذ انفجرت وقلت: وأنا من أكون؟ ألست زوجتك؟ افرض أنني زوجتك الأولى ولم نرزق بأبناء، ألم تكن ورثتك ستتحوّل لإخوتي أيضاً، أم أنني الآن مجرد ممرضة، مجرد مدبرة منزل؟

شكوته لإخوته، وخجلت من الشكوى لإخوتي كي لا يتضح تدني قيمتي عنده، وكي لا يكشروا عن أسنانهم ويقولوا لي: الحق عليك، أنت رضيت أن تتزوّجيه دون كتابة ملكية خاصة بك.

سألت محامين وقالوا لي بأن لا أقبل مهما أصرّ، وأنا خفت من تراجعه حتى عن كتابة بيت مؤقت بحق انتفاع يجعلني أخاف الموت ولا أفكر إلا به، جارتي قالت لي هدّديه بالذهاب لعند أهلك وتركه، فخفت عليه، وخفت أن يدفعه هذا الموقف للتمسك بحجّته الواهية بأنني سأنساه فوراً، وقد أتزوج أو أبيع البيت مباشرةً بعد موته.

تحوّلت حياتي معه إلى مكاسرة ولكلمات يومية أحضّرها بجهد لثنيه عن قراره الظالم، صرت بخيلة على نفسي، أخبئ كل قرش وأحرم نفسي حتى من شراء قطعة ملابس خوفاً من الغد الغامض والموحش والفقير.

هزلت وتشتّت ذهني، ويلازمني البكاء، لا قدرة لي على العمل بعد

الآن فأنا في العقد السادس من عمري، وكل مدخراتي التي أملكها لا تمكّنني من فتح عمل خاص وآمن ومربح. النساء تعيسات، وتعيسة أنا، وفاقدة للحيلة وللقدرة على التصرف بحالي وأقداري وإن فكرت بقضية الحَجر، فالقاضي لن يقبل، وسأخسر حينئذ كل شيء، لن يقبل القاضي لسلامة عقل زوجي ومكانته المعروفة، ولأن الحَجر من الزوجة الثانية مكروه ومرفوض عرفاً وشرعاً، وأنا في حقيقة الأمر لا أفضّله، ولا أطيق أن تشتعل نار العداوة، وحينئذ سيلفظني كالحشرة هو وأبناؤه وكل المحيطين بي، وسأوصف بالزوجة العاقّة والناكرة للجميل.

أحلم بقانون للزواج يحدد أحقّية كل طرف، بصورة واضحة وثابتة يتوافق عليها الطرفان قبل الزواج، بتُّ مطلعة على القوانين كلها، ولو قُيّض لي أن أعود إلى الدراسة لأصبحت محامية تدافع عن حق النساء، وخاصة غير المنجبات، والوحيدات المعزولات عن كل حماية أو دعم.

أفكر بتلك البلاهة التي تجعل الرجل وصيّاً وقيّماً على حياتي حتى بعد موته وموتي أيضاً، سأصرّ على حقي وسأسكن بيتي الخاص وأرتّب أغراضي وأحلامي وضجري في زواياه المشعّة، لن أتنازل لأحد عنه ولن أرصده للطامعين أو للغياب!!

أفكر بكل التهكمات والكم الهائل من السخرية التي سيواجهني بها أهلي وأقربائي عندما يقولون لي: لماذا تزوجته؟ أو مسكينة! لأني عدت بخفَي حنين لا ولد ولا مال، سأصير مضرباً للمثل عن إخفاق المرأة، وكأنني من وضع القوانين ومن سنّ الشرائع ومن أكسب العرف صفته القطعية، فأضحى القانون والشريعة والعرف سيوفاً مسلطة على رقابنا نحن النساء دونما أمل بالخلاص، أفكر، وأبكي، وأندم، وأعود لأمنّي النفس بعجيبة ما تقلب المعادلة أو برحمة أرضية أو سماوية.

في قريتنا لا يورّثون البنات وإن كنّ عزباوات أو مطلقات أو أرامل أو

غريبات، تتمتع نساء الإخوة بمال آبائنا وأمهاتنا ونبقى مشاعاً تتقاذفه الخطوب والمزاجيات، وإن استقبلك أخ أو منحك غرفة المونة العفنة، فعليك أن ترفعي له القبعات، وأن تقبّلي يده ويد زوجته وأبنائه، لأنه حماك وستر عليك وآواك.

أتقلب بين نار المواجع وأكره زوجي وإخوتي وأبي وأمي الذين تخلّوا جميعاً عني، لا بل حرموني من حقي الأساسي في السكن والعيش الكريم بينهم، لفظوني غريبة ومهجورة كالبقرة الجربانة، وما زلت أنتظر رصاصة الرحمة الأخيرة، قُتلت مئات المرات ولكن هذه المقتلة هي الأقسى والأشد وجعاً، لأنها جاءت بعد حلم بالاستقرار اتضح أنه مجرد وهم، حلم بالملكية والأمان اتضح أنه كان مشروع استغلال جائر وبلا أية حقوق.

لو عملت خادمة عند زوجي لكان أجري يكفيني لشراء بيت بعد 15 سنة من خدمته وخدمة بيته الذي ظننت بكل غباء أنه صار بيتي.

سأزرع الزهور وشجرة رمان وتفاح ومشمش وإجاص، سأغرس كرمتين لعنب أسود وأبيض، سأزيّن سطح بيتي بالقرميد الأحمر، وأعزل جدرانه بالـ«ستيريوبور» طمعاً بالدفء وتوفيراً بالطاقة وكلفتها الباهظة والمرهقة لأرملة وحيدة وبلا دخل مثلي.

من نصّب الرجال حكاماً قساة على مقدرات النساء، وتعامى عن إصدار قانون منصف وعادل لحمايتهن حاضراً ومستقبلاً؟ من يمنع عني اللجوء إلى المحكمة بصورة هادئة ودون اتهامات أو تجريح لأحد، لإنصافي وتثبيت حقوقي؟

كل النساء مقهورات وحذرات ومترقبات، خائفات من الغد وكأنه بعبع بسبعة رؤوس يأكل خيرهن ولا يشبع، ويرميهن لقماً سائغة على أبواب الإخوة والأبناء والأزواج ورجال القبيلة وحكماء العشيرة. وكل النساء

الأخريات المعانيات لوجعي نفسه، والمشاركات لي بالخوف نفسه، وبالوجع، لكنّهن صامتات أو ناكرات لحقّي وحقوقهن، يقبلن الرغبة في العيش الكريم، بالصمت والذل والاحتواء ليصرن مداساً للأقدام، ومنسيات ومهجورات ومهملات.

لا أريد مقاسمة أحد في حقوقه، لكنني حددت طلبي المحق وسأسعى إليه بشتى الطرق، بيت صغير عبارة عن غرفة نوم وصالة ومطبخ وحمّام، تجول فيه رائحتي التي أحب وأطهو في مطبخه الوجبة التي أحب، وسأستقبل من أحب ساعة أحب.

هو بيتي ملكي وسندي وفرحي في مواجهة زمن أغبر، ومستقبل هو أجنحته وعيونه.

أتدرب كل يوم على صياغة كلمات منمقة هادفة وغير جارحة، مانعة لأي تفسير ملتبس وفاتحة لأبواب التراضي والتوفق، أكره أن أكون الضحية وأن يكون زوجي وأهلي هم الجلّادين، أدافع عن حقي وعن إنسانيتهم، فليكن لي هذا البيت، فلتكن لي تلك المساحة المضيئة وسأكون المرأة التي أحترم والتي تستحق كل هذا العيش بعد كل هذا الحرمان، سأكونها، أجل سأكونها ولن أخونها أبداً.

أنا والمدينة على أبواب الحرب

من قال للوحدة أن تصبح شريكتي في كل تفاصيلي؟ البيت فارغ، والأولاد سافروا كل في اتجاه حرصاً على أمنهم وسلامتهم وطلباً لمورد رزق أو فسحة أمل.

الطناجر يعلوها الغبار، أطهو بقدر صغير وتكفيني الطبخة لأيام، حتى وجبة الغسيل صارت شحيحة وأنتظر أسبوعاً وأكثر لاستكمالها. أقضي الوقت في التسوق، لكني سرعان ما أشعر بالملل من السوق وباعته وبضاعته. تشعر وكأنك في سوق خاص بالمتوحدين، كله لاستعمال شخص واحد، عبوات فائقة الصغر لحفظ الطعام، شراشف مفردة ووجوه وسائد وحيدة، حتى المناشف صغيرة المقاس وكامدة اللون، عبوات شامبو لمرة واحدة أو مرتين لا أكثر، عبوات كريم اليدين بحجم العين البشرية وحسب.

أجهد في هدر الوقت على الهاتف، لا وقت للآخرين يهدرونه مثلي، كلٌ له مشاغله وهمومه، أحاول توسيع دائرة الاتصالات، لعلّي أفوز بدعوة على الغداء مدعوةً أو داعيةً لا فرق، المهم وجود صحبة ما، لكن لا نتيجة، يمر الوقت ثقيلاً كالهمّ، الأولاد المسافرون حكوا لي كل ما مرّ بهم في

الأمس، ولا وقت أو رغبة لهم بتكرار تقاريرهم اليومية بحجّة طمأنتي، الغربة تلتهم أوقاتهم وأعصابهم وتغتال رغبتهم في الكلام، فكيف لي أن أجلدهم مرتين وأطالبهم بالمزيد من التفاصيل عن أحوالهم طلباً للمشاركة وكسر العزلة المقيمة كالصخرة على صدري.

أبذل جهدي لفتح أحاديث مع الناس في السرفيس أو في الباص أو في الدكاكين، بعضهم لا يهتم أبداً ويغرق في صمته، وبعضهم الآخر يقحمك بمصائبه ويصير لزاماً عليك الندب والعنين والبكاء لأجله، فتقول في قلبك: «حلّ عني مو ناقصني!».

والبقية بلا همّ ولا غمّ، خلقت الحرب لهم مجالات للغنى والتسوق وفرض أنفسهم كأمر واقع، يتوهون في كماليات كانت سقف أحلامهم، كقلم حمرة أو جلسة في مطعم أو بنطال جينز مبرقع جديد.

في المساء أشاغل الوقت علّه يمضي مسرعاً، أصنع حلاوة السميد وأرميها، أعدّ البيض المقلي، وآكل ربعه، أقضي وقتي في تنظيف الصحون وترتيب وحدتي على فراش بارد وقاتل، أحضر دواءً منوماً استعداداً للقلق القدري، أحضّر ثياب الغد وأكرر التحضير مرات ومرات، يقبع الوقت على صدري ثقيلاً وصلباً كالباطون المسبق الصنع.

الجيران رحلوا، نصفهم سافر والنصف الآخر غيّر مكان إقامته واختار السكن مع أهله توفيراً بالكلفة اليومية واختصاراً لمسافات الطريق وأكلافه المروعة، وبعضهم أجّر بيته لانقطاع مورد رزقه والتحق بأهله أو استأجر في مكان أرخص وأقرب.

تنام المدينة باكراً وعلى عجل، تنام وحيدة مثلي وعيونها ترنو إلى قمر مخاتل وبعيد، إلى نجوم اعتادت السير منفردة كي لا تسرق أختها ضياءها...

النزق سمة ملازمة للوحدة، تضجر من الجماعة مع أنك تحتاجها

وتشتهي رفقتها، تعتاد الاستماع لأنفاسك وحسب، وتبرمج جدول الحياة بأولوياتك وحدك، آه يا وحدي!

اشتريت عربة لتحميل جرة الغاز وأخرى للخضار، تزداد يوماً فيوماً مشترياتي ومقتنياتي لكنها مرتبطة بالحالة الطارئة الجديدة التي أصبحت عليها، بتوصيفي النفسي والعاطفي والاجتماعي: وحيدة، في حقيبتي يسكن بيتي، دوائي، أوراقي الخاصة، بدلي الداخليّ وصور الأولاد الغائبين، ورائحة قديمة لجلسة مشتركة أو جمعة فرح.

تتناقض الحاجات تبعاً للظرف الموضوعي، فنطلب الوحدة في عز ساعات الامتلاء بحضور الأحبة وبضغط العمل وطول برامج الواجبات والترتيبات المحضّرة لعيش جماعي كامل ومكتمل، والآن أطلب الازدحام والحضور الكلي للضجيج، لخناقة حامية أكون شاهدة عليها، وأقضي وقتي في قصّ الحكايا عنها وإبداء التعليق حولها. أشتهي اتصالات للاستشارة أو طلب المساعدة في طبخة ما أو عمل آخر، وأشدّد بعد الإدلاء بدلوي على أهميتي وخبرتي وسعة معرفتي وتجاوبي مع طلبات الآخرين وحاجاتهم، لأؤكد لنفسي قبل الجميع أنني ما زلت صالحة للحياة، وما زلت على قيد الفوز بحياة صاخبة وفرحة وطويلة.

في الفترة الأولى لم أجد صديقاً وفياً كألبومات الصور القديمة، ترافقها الدموع الوفيرة والآهات وضرب الكفّ بالكفّ، ولعن الحروب وكل من أوقدها، كل من أجّج نارها، تكبر عداواتي لكل هؤلاء، فقد رموني وحيدة وسرقوا مني كل لحظات الأمل والأمان. جرّدوني من صخرتي التي عليها أتكئ، وحطموها، وسحبوا من تحت أقدامي موطئها الثابت والمستقر.

على باب الفرن أقف متلعثمة بحاجتي، رغيفان لا أكثر فأنا وحيدة، والخبز سيئ والبيع بالربطة الكاملة، سيسخرون مني ومن وحدتي، فما بالهم هم، المضطرون لشراء كميات كبيرة لإشباع عوائلهم، أحاول شراء

رغيفين من أحدهم لكنه يظن أنني محتاجة فيمنحني إياهما دون ثمن، وأتلعثم بحاجتي وغربتي ووحدتي أكثر وأكثر.

بعد حين صارت تلك الألبومات كالعقارب اللاسعة سمّاً، رميتها جانباً وأدمنت «الواتس» و«الفيس» والرسائل الإلكترونية، وقضى انقطاع الكهرباء على ذاك المنفذ النعيمي المخمّد لكل بواعث القهر والعزلة.

الصورة ذاكرة منبوشة، والصوت ذاكرة مفتوحة على الغياب، والطبخة شبه اليابسة التي لم أتمكن من القضاء عليها حتى الآن وهي تحتل مكاناً في البراد هي أيضاً ذاكرة مشرّعة على وحدة صلبة ومتوحشة تلتهمني قبل أن أكمل التهام طعامي المقنن.

ذهبت إلى دار العجزة، سألت موظفيها عن مكان لي فلم أجد، فكثرة العدد وضعت شروطاً جديدة للمقبولين ومبلغاً كبيراً لا أقدر على سداده، سألت عن حاجتهم لمتطوعات تروين الحكايا وتتشاركن تقليب ألبومات صور أفراد العائلة مع امرأة وحيدة ومنسية أخرى، لكنهم سخروا من سذاجتي وقالوا: هذه دار محترمة واختصاصية وليست مكاناً لصبحية النسوان.

في الطريق إلى بيتي (الأصح إلى محراب عزلتي) حفظت عدد الأشجار ولونها وحجمها وشكل السيارات المصفوفة بانتظام، حفظت أسماء الموتى المعلّقة ضمن أوراق نعيهم على الجدران، ومعها أسماء العائلات وتسلسلها ونسبها، إنه وقت يمضي، والحياة تسير بغفلة عني وعنها، لكنها متوحشة الخطا وقليلة الفرح وحسودة وحقودة.

أنا والمدينة على أبواب الحرب، نتشارك من بعيد موتنا الكارثي وعمرنا المتسرب كمياه ريّ بالتنقيط على تفاصيل الغياب والوحدة والتخبط والانتظار والحاجة، للمشاركة، للاتصال، لحوار، لشجار، لسؤال عاتب أو دعوة حتى للمشاركة في جنازة.

أنا والمدينة والوحدة القاتلة نقف على أبواب الحرب ونصرخ: أما آن لك من نهاية؟ أما شبعت من تآكلنا قضمة وراء قضمة ومن طول الاحتضار؟! وحيدة أنا والمدينة شاهدة والحرب مستمرة في هضمنا ورمينا لُقَماً نتنة الرائحة للكلاب.

تنتهك الوحدة هدوئي، وتبتلع الحيرة كل مكامن الأمل، عليّ أن أعتاد على صنع فنجان قهوة واحد، الشاي مللته وأقلعت عن شربه لأن له طعماً مقرفاً حين يعدّ ككأس وحيد وليس في إبريق عائلي كالعادة.

لم تفكر النسوة الوحيدات بالتجمّع ولا بالتلاقي، استسلمن لكآبتهن وكرّسنها قضاءً مبرماً ونمن نومة أهل الكهف.

ذات مساء قررت أن أتعامى عن موعد عودتي للبيت وأن أبقى عند قريبتي، تذمّرها كان واضحاً وبلادتي كانت أشد وضوحاً، كنت خائفة يومذاك، من كل شيء، وبحاجة إلى إلقاء متاعبي على عتبة باب بيتها والبقاء هناك.

البقاء من أجل البقاء، من أجل التأكيد لنفسي قبل الجميع بأني لن أموت وحيدة وثمة زاوية أتكئ عليها.

أشهد من هنا، من أكبر منبر للوحدة والاغتراب، بأن رائحة الصباح قد تغيّرت بفنجان وحيد وغريب، وأن فطور الصباح كئيب ويشعرك بجوع متزايد، وتزداد الشراهة المرضية لأكلات بلا معنى أو قيمة، لتسوّق ما لا تحبه فترميه فور عودتك إلى بيتك. أشهد أن الأوجاع تزداد حجماً خرافياً بلا مسببات، فقط لأنني وحيدة، ويكفي.

حذاء جديد

حسمت أمرها واتجهت نحو السوق، لم يعد حذاؤها الصيفي يحتمل خيطاً إضافياً واحداً على حوافه المشبعة بالخيوط المتراكمة فوق بعضها كالقطب الجراحية الثخينة علّها تُحيي ما صار رميماً منهياً.

استلمت راتبها ولم تتردد لحظة بالركون إلى قرارها المصيري، ستشتري حذاءً جديداً، مريحاً وجميلاً وليكن ما يكون.

لم تترك محلاً لم تعاين بضاعته، استبعدت فوراً بضعة محلات تبدأ أسعار الأحذية فيها من التسعة آلاف ليرة، ودخلت إلى البقية لتقيس كل ما وجدته على الواجهات. ذاك بقفل جلف يجرح قدمها، والآخر بربطة قصيرة تعجز عن ربط جهتَي قدمها ببعضها، وهذا بكعب متعب، وذاك بوجهٍ قاسٍ من النايلون الحامي جداً.

لكنّ إصرارها لم يلِنْ ولم تفتر همّتها أبداً، حتى جالت كل المحلات، وفي كل إخفاق كان أملٌ جديد يحيا وترقص له جدران قلبها وتحضّر قدماها نفسيهما لاستقبال زائرٍ جديدٍ وغالٍ جداً.

بعد المحل الرابع عشر، أحسّت بالتعب، وتراجعت معنوياتها، شعرت بالجوع لكن شراء السندويش غير وارد في لائحة النفقات، كابرت على

جوعها وعطشها واتجهت نحو المحل الخامس عشر وحذاؤها في نزعه الأخير وخيوطه تتفكك مرمية على الأرض، والثقب الكامن في منتصف الحذاء يتسع ويصير شقّاً واسعاً يضغط على باطن قدمها ويحبسه بين شقيه المشرومين.

قاست حذاء أسود بكعب مريح وربطة كافية لتضم جهتي كلٍّ من قدميها الواحدة إلى الأخرى، سألت عن السعر فأجابها البائع: أربعة آلاف وتسعمئة وخمسون ليرة، ارتعدت أوصالها وحانت ساعة الحسم، خمسة آلاف ليرة ثمن حذاء وهي التي لم تعتد يوماً دفع نصف هذا المبلغ ثمناً لحذاءٍ لها، ما دام الأنسب هو الأرخص حتماً، لم تخضع يوماً لإغراءات الأحلى أو الأحدث، كان كل شيء تسكيتة جوع وسدّ حاجة، وهو قانون يصلح لكل شيء، أو بالأحرى هو قانون ثبت نفسه في طريقة عيشها وعيش البشر من أمثالها.

حواف الشرخ تضغط على لحم باطن قدمها، والحذاء الجديد يناديها وقلبها يهتف له. تقرر مكابرة مغامرة مقامرة أن تشتريه، تخلع حذاءها المتهالك فوراً، تطلب كيساً تضع فيه حذاءها الرثّ، وتطالب البائع بالفردة الثانية من الحذاء الجديد لترتديه فوراً، لكن البائع يفاجئها بمصادفة غريبة قائلاً: أعتذر يا سيدتي، فالفردة الثانية من نمرة أصغر، وأردف: لا بدّ أن السيدة التي اشترت الحذاء الآخر قد أخطأت في قياس الفردة الثانية.

أسقط في يدها وأظلمت الدنيا بعينيها، تناولت حذاءها القديم ألصقت الشق الغارز بلصاقتين طبيّتين وخرجت، وكلما قرصتها الخيوط الناتئة كانت تردد لنفسها: «المتعوس متعوس ولو علّقوا بقدمه فانوس».

وفي الطريق عاتبت حذاءها شبه المتلاشي قائلة: «وحياة خالقك ماني مفارقك!»، وعضّت على آلامها وسارت صامتة.

ضابط الإيقاع أبو نجيب

بخطوات واسعةٍ وعصبية ينهب بلاط الرصيف بلاطة بلاطة. ما زالت الساعة الرابعة ظهراً وموعد القداس في الخامسة والنصف. منذ شهور عديدة وأبو نجيب يواظب على حضور القداس مرتين كل أسبوع، لم يرتد كنيسة في حياته إلا في الجنازات، حتى عرسه كان في بيت العائلة في قريته البعيدة.

كان وحيداً في بيته المترامي في الأطراف، غرف مصفوفة الواحدة بجانب جارتها، والأبواب متلاصقة ومتداخلة، غرفة تؤدي إلى أخرى، أو غرفة ملاصقة لأخرى لدرجة تظن أن البيت كله مجرد قطار والغرف مجرد عربات بائسة وباردة في هيكله الحديدي.

توفيت زوجته منذ مدة طويلة، لكن ازدحام البيت بالأبناء وأبنائهم لم يترك له فرصة للحداد ولا للفقد، أو الغرق في زنزانة الذكريات.

تزوج أبناؤه الستة بصورة متتالية، في كل صيف عرس وفي كل ربيع حفيد، وكبرت العائلة وانشغلت الغرف العشر بالأزواج والأبناء، وبقي في غرفته وحيداً كعادته، بعد أن انشغلت النسوة بهموم البيت والأبناء

وبالشجار والمناحرات. بالمصادفة البحتة تتذكر إحدى الكنائن شرشف سرير عمها ووجه مخدّته، بالمصادفة البحتة تقوم إحداهن بكيّ بنطال أبي نجيب أو قميصه. لكنه كان سعيداً، متخماً بالخصومات، بالحكايا، بالتحايلات على الصغار حتى يرضوا، وعلى الكبار حتى يصمتوا.

لا يعرف أية حرب شعواء هبّت وثارت واقتلعت قبيلته من جذورها، في كل شهر رحيل وفي كل أسبوع وداع وفي كل يوم فراغ.

بقي وحده، سيداً للفراغ وحارساً لطواحين الهواء. فقد شهيته إلى الطعام، فقد قدرته على السجال والضحك والمزاح، لدرجة اقترب فيها من نسيان الكلام.

ذات يوم وهو يذرع الرصيف جيئة وذهاباً محاولاً قتل الوقت الموحش، سمع طفلاً يقول لأمه: «هل يوجد كاتو في القداس اليوم؟». لم يثر «الكاتو» اهتمامه، بل صوت الطفل وشكله وخاصة عينيه اللتين كانتا تشبهان عيني حفيده الأحب إلى قلبه.

تسلل خلف الأم وابنها ودخل القداس، كان الرجل الوحيد والهرم الوحيد، لكنه دخل وجلس في المقعد الأخير يراقب الهرج والمرج وأصوات الجوقة المرتّلين على أنغام «أورغ» سيئ الإيقاع. غمرته السعادة واستعاد وجوه كل الغائبين وأصواتهم، شعر وكأنه في جنّته المعهودة، واستسلم لوقائع العيش البهي القادم على صهيل الأطفال وضحكاتهم وعبر صدى دعوات الأمهات وأوامرهن الناهرة الآمرة.

منذ تلك الساعة وهو لا يتأخر ثانية عن حضور القداس، يخرج من بيته القريب قبل ساعة أو أكثر، وبمجرد فتح باب الكنيسة كان يجلس في المقعد الأول وما يلبث أن ينتقل إلى المقعد الثاني مانحاً القادمين والقادمات على التوالي مكانه، حتى يصل إلى المقعد الأخير، وفي أحيان كثيرة كان يمنح حتى مقعده الأخير للواصل الأخير، ويجلس على كرسي

جانبي أو يبقى واقفاً على مدخل الباب يراقب الجموع بحبور وسرور كبيرين.

بعد وقت صار جزءاً أساسياً من تفاصيل القداس، إذ بات يوزع المقاعد على الوحيدات والأرامل والمتقدمات في السن في الصفوف الأولى، ويمنح المقاعد التالية للشابات وفي المقاعد الأخيرة يسرح الأطفال ويمرحون وهو بينهم أو خلفهم يراقبهم بعينيه وقلبه، صار أبو نجيب ضابط إيقاع القداس، ينظّم أماكن الجلوس، يخرج الأولاد الباكين إلى الباحة ويراضيهم ويُسكتهم متوداً إليهم، هو من يفتح باب الكنيسة وهو من يغلقه لأنه الواصل الأول والمغادر الأخير.

يجلب معه السكاكر والبسكويت للأولاد، ويمنحهم كل الحب مع حبّاتها اللذيذة، في كل قداس فرح وحبور، في كل قداس حياة ممتلئة بالحياة.

الخلّاط

غبشُ الأسئلة يزاحم الأسباب الكامنة وراء تعلّق البشر بالخلّاطات الكهربائية، اقتناءً واستعمالاً ومادة للحزن والشكوى.

في أول نزوح كان الخلّاط هو الأداة المنزلية الوحيدة التي أخرجتها معها من بيتها، ريثما تستقر في بيت مستأجر أو تعود لبيتها الأساسي، وضعته أمانة في بيت والدتها لكن شيئاً لم يتبدل، لم تعد إلى بيتها ولن تعود، ولن تتمكن من استئجار بيت جديد، وبقيت برسم التجوال من بيت إلى آخر، وبقي الخلّاط أسير غربته في كيسه الأسود الكامد.

اشترت سميرة خلّاطاً جديداً بعد أن أصبح زوجها مقعداً وغير قادر على بلع الطعام السميك، وكلما أعادت لأخيها جزءاً من ثمن الخلّاط المقترض منه كانت تعيد وتكرر أسطوانة الشكوى والنحيب خاصتها، واضطرارها لشراء خلّاط جديد بالدّين، بينما هناك في المكان الذي كان اسمه بيتها يتفرد خلّاط أجنبي الصنع بالتربع على رفٍّ خشبيّ كبير، وتكرر بأنها لم تستعمله ولو لمرة واحدة، وتبكي بكاءً مرّاً لا دواء له.

أما حكايا التعفيش والترحيل والغنيمة بإخراج أداة منزلية ما، فجلّها مختص بحكايا الخلّاطات، بعضهن قلن إنهن خرجن وثمار الفواكه

ما زالت فيه، والبعض الآخر يتحدث عن رؤيتهم لخلّاطهم ذاته على البسطات والعربات بين أكوام الخردة وسقط المتاع، وأما القلة الباقية فتكرر الحكاية ذاتها بأنها لم تتمكن من إخراج شيء إلا الخلّاط.

لسعاد قصة خاصة مع الخلّاط، فبعد تقاعدها من العمل في الخياطة، صار الخلّاط صديقها اليومي، بين شفراته تطحن البندورة لإعداد الطبق اليومي، وعلى إيقاع ضرباته تطحن وتخلط التوت أو التفاح بالموز وعصير البرتقال، لتتباهى أمام زوارها بشراب بارد فخم صحي وطازج.

عبر شباك غرفتها المفتوح على الحارة سمعت بأن المسلحين قد باتوا قريبين جداً، انتابتها رعشة عميقة زلزلت كيانها، أمسكت بيدها كيساً صغيراً تضع فيه أوراق ملكية البيت الصغير ووثائقها الشخصية، خلعت إسوارتها الوحيدة ووضعتها في صدرها مع مبلغ قليل من المال هو زادها وزوادتها، وقررت الخروج.

دققت في البراد والغسالة والغاز الصغير، بالسجادة الوحيدة الملفوفة في الزاوية وبالصوفايات الثلاث التي لا تملك متاعاً سواهن. عاينتها بأسى والدموع تترقرق في عينيها، وهي تتجه نحو البوابة لمحت بعينيها المجروحتين الخلّاط، عادت إليه، فتحت غطاءه وأفرغت أمعاءها بداخله.

لم تكن بقادرةٍ على حمله، ولن تتركه للمعفّشين يبيعونه بالرخيص. فضّلت إتلافه وملأه بتغوّطها على أن يصبح هباءً منسياً ويستمتع بثمنه أوباش يستبيحون كل شيء.

خرجت من البيت تاركة صديقها اليومي سابحاً في خلاصة أمعائها، مطمئنةً إلى أنها في اللحظة الأخيرة، قد فوّتت على الأوباش فرصة اغتنام أعزّ وآخر ما لديها من جنى العمر الهرم.

المريض الكاذب

شعر بأن رأسه المحموم سينفجر وبأن جسده الضئيل بات غير قادرٍ على حمله، دخل الصيدلية ليشتري خافضاً للحرارة، لكنه ما إن وطأ مدخل الصيدلية حتى سقط أرضاً مغشياً عليه.

وجهه الخمري مائلٌ للزرقة، ودقات قلبه متسارعةٌ وصاخبة، وجسده ملقىً على الأرض بسكونٍ يسبق حضور الموت.

ذعرت الصيدلانية وركضت تنادي جارها بائع الفلافل، فهي لا تقوى على حمل فتىً في حوالي الرابعة عشرة من العمر، حمله الجار وأجلسه على كرسي بلاستيكي هشّ، إلا أن جسده ما لبث أن تهاوى، فاستنجدوا بالطبيب في الطابق الأعلى الذي جاء وعاينه وحقنه فوراً بحقنةٍ خافضة للحرارة، أعادته قليلاً إلى وعيه، لكن عرقاً غزيراً بدأ ينهمر من كل جسده، وجسده يرتعش وينتفض، أصرّ الطبيب على أخذه للعيادة حيث يوجد سرير يقي جسده من معاودة السقوط، تعاون بائع الفلافل ومصلّح الدراجات وحملاه إلى الطابق الثاني، وكان جسده منهاراً تماماً وشفاهه متيبسة، والطبيب قرر إعطاءه حقنة أخرى ضد الالتهاب، فصرخ الفتى وهو في خضم انهياره الجسدي: «دكتور أنا لدي حساسية من البنسلين!»،

ضحك الحاضرون، وعلّق بائع الفلافل بأن الحياة رغم كل قسوتها غالية وحلوة.

سألوه عن أهله فأجاب: «ليس لدي إلا أمي وأختي الصغيرة، وأمي في العمل وأختي عند بيت خالي». طلبوا هاتفها لتحضر وتأخذه إلى البيت، فنفى وجود هاتف جوال أو ثابت لديها.

غيّر الطبيب من الوضعية وحقنه بحقنة تناسب جسده الحساس، وأمره بالبقاء مستلقياً ريثما يجدون شاباً يرافقه إلى بيته، لكنه أجاب بأنه قد نسي مفتاحه بالبيت. وأردف: «أنا أعمل عند صاحب محل الألمنيوم، سأذهب إليه وشكراً لكم!».

وقال للطبيب: «عندما أحصل على أجري الأسبوعي سأحضر لك أجرك». ضحك الطبيب وقال: «مسامح، شدّ حيلك وبس»، وعندما وضع الوصفة بيده قال: «دع أمك تشتريها لك لأنك بحاجة ماسة للدواء والغذاء، وغداً تعال معها لأراقب صحتك». صمت الفتى رأساً ومشى ورافقه الجاران إلى محل الألمنيوم، وشرحوا لصاحبه وضعه الصحي ورحلوا.

مرت ساعات والفتى خامد الحركة، وجسده ينتفض خاصة أنه لم يشتر الدواء ولم يأكل منذ مساء البارحة، صنع له معلمه إبريقاً من الشاي ومنحه أربع كعكات، وكل ساعة كان يطلب منه العودة إلى منزله ليرتاح ولتشتري أمه له الدواء، لكنه كان يكرر أنه قد نسي المفتاح وأمه تتأخرعادة في العودة إلى البيت، لطول ساعات عملها.

شارفت الساعة على الثامنة ووضع الفتى الصحي يتراجع، وبانت رائحته نتنة من شدة التعرق، فكرّر معلمه الطلب إليه بالذهاب لبيته. كرجلٍ محاصر ومكسور الجناح بكى، بعيون منكسرة وذابلة قال لمعلّمه: «خلّيني نام اليوم بالمحل». جنّ جنون المعلم وقال للفتى: «أخبرني

الحقيقة أو أسلمك للشرطة»، هكذا هي الحال لا حل بين الحقيقة أو الشرطة، البعبع الأزلي.

انكمش الفتى على مقعده، لكنه بكلمات باهتة وضعيفة قال: «لم نعد قادرين على دفع إيجار الغرفة، فقررت أمي أخذ أختي معها لتسكن في بيت خالي الذي يرفض استقبالي لأني بالغ، ولديه خمس بنات»، وتابع: «والله العظيم هذه هي الحقيقة، وأنا طمأنت أمي وقلت لها: اذهبي ومعلمي سيوافق حتماً على نومي في المحل».

قال هذا، وتلا عشرة أرقام هي رقم جوال أمه الذي نفى وجوده من قبل، وتابع قائلاً: «اتصل بها واسألها، وأرجوك أن تطمئنها بأنك موافق على نومي في المحل».

صمت الاثنان، وتبلكمت السماء وبرد جسد الفتى المنهار، وفي الخارج كانت أنوار الطريق تنوس وتبهت فزعة من فداحة وضوح الفاجعة.

في الحرب

في الحرب حققت حلماً طالما راودني ولم أتمكن حتى من التفكير بتحقيقه. اشتريت طقم جلوسٍ خشبياً جديداً منجّداً بقماشٍ قطني مقلم وممزوج بالدامسكو الملون الأخاذ، لم أشتره من سوق الحرامية ولم أقايض محتاجاً على بيعه بثمن بخس، اشتريته من صديقة هاجرت إلى السويد. كانت تملك فرصة للهروب، وكان ثمنه جزءاً من تفاصيل هذه الفرصة، لم أحسدها على نجاتها من الموت، ولا على وصولها الآمن إلى بلاد الرفاه، أنا بقيت هنا أحقق حلمي بطقم الجلوس وهي تركته لي، جالسة بين ضفافه أعاتب الغربة التي حرمتني صديقتي، وأشكر الفرصة لأن اقتناء الطقم كان بوابة عبورها.

في الحرب، حمدت الله وشكرته مرات ومرات، لأنه أخذ حماتي إلى أحضانه في الفردوس الأعلى، فلقد تخلصت بموتها من نفقات علاجها وأدويتها الكثيرة، ومن وجبات طعامها المكلفة من حليب ولحوم ومتممات غذائية، وربحت عدداً كبيراً من الحسنات والتشكرات والدعوات الخيّرة حينما منحت ملابسها وأحذيتها وأدويتها إلى دير الراهبات.

والأهم أن غرفتها الواسعة والمطبخ والحمّام الصغيرين الملحقين

بها أصبحوا فارغين وجاهزين للإيجار مقابل مبلغ شهري مرقوم، عدا صحبة عائلةٍ صغيرة وطيبة لديها طفلة صغيرة عشقتها كحفيدة لي. وتبحبحت في معيشتي الضيقة وبتُّ قادرة على تذوق أصناف الخضار والطعام، وشراء اللوازم الضرورية في حربٍ غبراء قاسية وغالية، لكني والحق يقال أستمطر الرحمات على روح حماتي كل يوم وكل ساعة، فقد رحلت في خضمّ الحاجة إلى رحيلها.

في الحرب وجد زوجي العاطل عن العمل عملاً يرتزق منه، سددنا جزءاً من ديوننا الكثيرة، اشتريت أحذية لأولادي شبه الحفاة، وبات الشبع فعلاً يومياً موازياً لحياتنا.

يشتري زوجي المعونات الفائضة عن حاجات المستفيدين منها ويبيعها للعامة بهامش ربح قليل، يشتري كل شيء ويبيع كل شيء، من ربطة المعكرونة وحبل الغسيل حتى الحصر والبطانيات، مع أنه ابتدأ صفقاته بكيسٍ من الأرز ومثيل له من العدس، وقام ببيعهما بالمفرق، واعتادت النسوة الحضور إلى بيتنا وبأيديهن المزيد من المواد، بعضها فائض عن الحاجة وبعضها لا يحبه الأولاد، والبعض الآخر يدرّ مبلغاً كافياً لشراء حذاء بلاستيكي للأولاد.

وصفه الجميع بـ«الآدمي» وبصاحب الربح القليل، لكن كثرة المواد المباعة وشدة الطلب عليها لرخص أثمانها مع أنها تعادل الدرجة الرابعة من كل شيء، ابتداءً بقطعة الصابون حتى طنجرة الطبخ. وبعد أن توسعت تجارته وازدهرت، استأجر دكاناً قريباً من البيت يبيع فيه كل شيء حتى الملابس المستعملة والفائضة عن البشر، يغسلها ويصلحها إن كانت بحاجة إلى إصلاح، ويبيعها من جديد. وكلما قلّت البضاعة من صنفٍ معيّن كالزيت النباتي مثلاً ارتفع سعره في السوق، ويواكب زوجي سعر السوق بهامش فرقٍ بسيط جداً قد لا يتجاوز الليرات العشر، فيبيع أكثر ويربح أكثر.

في الحرب تحسّنت علاقة مريم بزوجة أخيها الراحل منذ سنتين، فبعد أن خسرت سحر زوجة الأخ عملها في معمل خاص للشامبو والمنظفات، باتت مضطرة لمراضاة شقيقة زوجها مريم، وللعلم هما تسكنان في بيت صغير ورثتاه مناصفة عن المرحوم، وكانت شجاراتهما واختلافاتهما الكبيرة والصغيرة مضرب مثل عند أهل الحارة، لكن الحاجة الماسة للعيش والطعام والكسوة والغاز والمازوت خفّفت من تشنّج سحر واحتقانها، وكانت مريم بالمرصاد لهذه المرونة القاهرة، فقد كانت تحب سحر كثيراً، فهي الوحيدة الباقية من رائحة الغالي، عدا القرابة الأصيلة، مرونة قاهرة ولحظية تلقفتها مريم واحتفلت بها، كالبلسم على جرح الفرقة والاغتراب والشجار والقهر اليومي.

في الحرب تحوّل تشنّج سحر ولغة مريم الجلفة إلى بذور رضا ومحبة وألفة، وعلى أعتاب باب بيتهما الصغير تزحلقت الحرب، وانسلّت هاربة بخفَّي حنين.

صدر من سلسلة «**شهادات سورية**»:

بمساعدة من جمعية «مبادرة من أجل سورية جديدة» ـ باريس:

1. موزاييك الحصار، عبد الوهاب عزّاوي.
2. إلى ابنتي، هنادي زحلوط.
3. بين الإله المفقود والجسد المستعاد، نبراس شحيّد.
4. كَمَن يشهد موته، محمد ديبو.
5. حكايات من هذا الزمن، دلير يوسف.
6. لم أتمدد يوماً على سكة قطار، أحمد باشا.
7. مزهرية من مجزرة، مصطفى تاج الدين الموسى.
8. غرفة تطل على الحرب، إيديت بوفييه.
9. إذا قفزت عن السياج ولم أصب بأذى، عمرو كيلاني.
10. أرض مائدة، ضحى حسن.
11. لم تنته الحكاية بعد، رؤى الإبراهيمي.
12. إكثار القليل، دارا عبد الله.

بدعم من المنظمة الأورو ـ متوسطية لدعم المدافعين عن حقوق الإنسان:

13. رسائل من سورية، وجدان ناصيف.
14. يوميات وقصائد، علي جازو.
15. انسَ دمشق، عمر يوسف سليمان.

بمساعدة من جمعية «مبادرة من أجل سورية جديدة» ـ باريس:

16. ما تبقّى من حياة، سهى زكريا.